سـورة البلد

مكية باتفاق وهي عشرون آية.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ لَآ أُقْسِمُ بِهَـٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١ ﴾

يجوز أن تكون ﴿لا﴾ زائدة، كما تقدم في ﴿لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [القيامة: ١]؛ قاله الأخفش، أي: أقسم؛ لأنه قال ﴿بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ وقد أقسم به في قوله ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ [التين: ٣] فكيف يَجْحَد القسم به وقد أقسم به، قال الشاعر:

تَذكَّرتُ ليلى فاعترتني صَبَابةٌ وكَاد صَميمُ القلب لا يتقطعُ

أي: يتقطع، ودخل حرف ﴿لا﴾ صلة؛ ومنه قوله تعالى ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف: ١٢]، بدليل قوله تعالى في «ص»: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ﴾ [ص: ٧٥]، وقرأ الحسن والأعمش وابن كثير «لأقسم» من غير ألف بعد اللام إثباتا، وأجاز الأخفش أيضا أن تكون بمعنى «ألا»، وقيل: ليست بنفي القسم، وإنما هو كقول العرب: لا والله لا فعلت كذا، ولا والله ما كان كذا، ولا والله لأفعلن كذا، وقيل: هي نفي صحيح؛ والمعنى: لا أقسم بهذا البلد إذا لم تكن فيه، بعد خروجك منه، حكاه مكي، ورواه ابن أبي نجيح عن مجاهد قال ﴿لا﴾ رد عليهم، وهذا اختيار ابن العربي[1]؛ لأنه قال: وأما من قال إنها رد، فهو قول ليس له رد، لأنه يصح به المعنى، ويتمكن اللفظ والمراد، فهو رد لكلام من أنكر البعث ثم ابتدأ القسم.

وقال القشيري: قوله ﴿لا﴾ رد لما توهم الإنسان المذكور في هذه السورة، المغرور بالدنيا، أي: ليس الأمر كما يحسبه، من أنه لن يقدر عليه أحد، ثم ابتدأ القسم، و﴿الْبَلَدِ﴾: هي مكة، أجمعوا عليه، أي: أقسم بالبلد الحرام الذي أنت فيه، لكرامتك عليَّ وحبي لك، وقال الواسطي أي: نحلف لك بهذا البلد الذي شرفته بمكانك فيه حيًا، وببركتك ميتًا، يعني المدينة، والأول أصح؛ لأن السورة نزلت بمكة باتفاق.

﴿ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَـٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝٢ ﴾

يعني في المستقبل؛ مثل قوله تعالى ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]، ومثله واسع في كلام العرب، تقول لمن تعده الإكرام والحباء: أنت مكرم محبو، وهو في كلام الله واسع، لأن الأحوال المستقبلة عنده كالحاضرة المشاهدة؛ وكفاك دليلا قاطعا على أنه للاستقبال، وأن تفسيره بالحال محال: أن السورة باتفاق مكية قبل الفتح، فروى منصور عن مجاهد ﴿وَأَنتَ حِلٌّ﴾ قال: ما صنعت فيه من

(١) انظر أحكام القرآن (٤/ ١٩٣٤) لابن العربي المالكي ـ رحمه الله.

شيء فأنت في حل[١]، وكذا قال ابن عباس: أحل له يوم دخل مكة أن يقتل من شاء، فقتل ابن خطل ومقيس بن صبابة وغيرهما، ولم يحل لأحد من الناس أن يقتل بها أحدا بعد رسول الله ﷺ[٢]، وروى السدي قال: أنت في حل ممن قاتلك أن تقتله، وروى أبو صالح عن ابن عباس قال: أُحلت له ساعة من نهار، ثم أُطبقت وحُرمت إلى يوم القيامة، وذلك يوم فتح مكة [٣]، وثبت عن النبي ﷺ أنه قال: « إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض، فهي حرام إلى أن تقوم الساعة، فلم تحل لأحد قبلي، ولا تحل لأحد بعدي، ولم تحل لي إلا ساعة من نهار » الحديث [٤]، وقد تقدم في سورة «المائدة»: ابن زيد: لم يكن بها أحد حلالا غير النبي ﷺ وقيل: وأنت مقيم فيه وهو محلك [٥]، وقيل: وأنت فيه محسن، وأنا عنك فيه راض، وذكر أهل اللغة أنه يقال: رجلٌ حِلٌّ وحَلالٌ ومُحِلٌّ، ورجلٌ حَرَامٌ ومُحِلٌّ، ورَجُلٌ حَرامٌ ومُحْرِمٌ، وقال قتادة: أنت حل به: لست بآثم[٦]، وقيل: هو ثناء على النبي ﷺ أي: إنك غير مرتكب في هذا البلد ما يحرم عليك ارتكابه، معرفة منك بحق هذا البيت؛ لا كالمشركين الذين يرتكبون الكفر بالله فيه، أي: أقسم بهذا البيت المعظم الذي قد عرفت حرمته، فأنت مقيم فيه معظم له، غير مرتكب فيه ما يحرم عليك، وقال شرحبيل بن سعد : ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ أي: حلال؛ أي: هم يحرمون مكة أن يقتلوا بها صيدا أو يعضدوا بها شجرة، ثم هم مع هذا يستحلون إخراجك وقتلك.

﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝﴾

قال مجاهد وقتادة والضحاك والحسن وأبو صالح ﴿وَوَالِدٍ﴾ آدم عليه السلام [٧]، ﴿وَمَا وَلَدَ﴾ أي: وما نسل من ولده، أقسم بهم لأنهم أعجب ما خلق الله تعالى على وجه الأرض؛ لما فيهم من التبيان والنطق والتدبير، وفيهم الأنبياء والدعاة إلى الله تعالى، وقيل: هو إقسام بآدم والصالحين من ذريته، وأما غير الصالحين فكأنهم بهائم، وقيل: الوالد إبراهيم، وما ولد: ذريته؛ قاله أبو عمران الجوني [٨]، ثم يحتمل أنه يريد جميع ذريته، ويحتمل أنه يريد المسلمين من ذريته، قال الفراء: وصلحت ﴿مَا﴾ للناس؛ كقوله ﴿مَا طَابَ لَكُم﴾ [النساء: ٣] وكقوله ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنثَى﴾ [الليل: ٣] وهو الخالق للذكر والأنثى، وقيل: ﴿مَا﴾ مع ما بعدها في موضع المصدر؛ أي: ووالد وولادته؛

---

(١) صحيح إلى مجاهد : الطبري (٣٠/ ٢١٠) في تفسيره .

(٢) ضعيف جدًا : هذا غريب من قول ابن عباس : لأن السورة مكية ، والآفة من سند العوفيين إليه ، وانظر الطبري (٣٠/ ٢٠٩) في تفسيره.

(٣) واه : أبو صالح كذاب في روايته ، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما وانظر السابق.

(٤) متفق عليه : البخاري (٤٢٩٥) في المغازي ، ومسلم (١٣٥٤/ ٤٤٦) في الحج ، عن أبي شريح العدوي .

(٥) الطبري (٣٠/ ٢١٠) في تفسيره .

(٦) صحيح إلى قتادة : الطبري (٣٠/ ٦٢) في تفسيره .

(٧) جمعها الطبري (٣٠/ ٢١٠، ٢١١) بأسانيد صحاح في تفسيره .

(٨) كذا في تفسير ابن أبي حاتم (١٢/ ٤٠٨) .

كقوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا﴾ [الشمس: ٥]، وقال عكرمة وسعيد بن جبير [١] ﴿وَوَالِدٍ﴾ يعني الذي يولد له، ﴿وَمَا وَلَدَ﴾ يعني العاقر الذي لا يولد له؛ وقاله ابن عباس [٢]، و﴿مَا﴾ على هذا نفي، وهو بعيد؛ ولا يصح إلا بإضمار الموصول؛ أي: ووالد والذي ما ولد، وذلك لا يجوز عند البصريين، وقيل: هو عموم في كل والد وكل مولود؛ قاله عطية العوفي، وروي معناه عن ابن عباس أيضا [٣]، وهو اختيار الطبري، قال الماوردي: ويحتمل أن الوالد النبي ﷺ، لتقدم ذكره، وما ولد: أمته لقوله عليه الصلاة والسلام: «إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أعلمكم» [٤]، فأقسم به وبأمته بعد أن أقسم ببلده؛ مبالغة في تشريفه عليه الصلاة والسلام.

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ ۝٤﴾

إلى هنا انتهى القسم؛ وهذا جوابه، ولله أن يقسم بما يشاء من مخلوقاته لتعظيمها، كما تقدم، والإنسان هنا ابن آدم، ﴿فِي كَبَدٍ﴾ أي: في شدة وعناء من مكابدة الدنيا، وأصل الكبد الشدة، ومنه تكبد اللبن: غلظ وخثر واشتد، ومنه الكبد؛ لأنه دم تغلظ واشتد، ويقال: كابدت هذا الأمر: قاسيت شدته: قال لبيد:

يا عينُ هلاّ بكيت أربدَ إذ قُمنا وقَام الخُصومُ في كَبَدِ

قال ابن عباس والحسن: ﴿فِي كَبَدٍ﴾ أي: في شدة ونصب [٥]، وعن ابن عباس أيضا: في شدة من حمله وولادته ورضاعه ونبت أسنانه، وغير ذلك من أحواله [٦]، وروى عكرمة عنه قال: منتصبا في بطن أمه، والكبد: الاستواء والاستقامة [٧]، فهذا امتنان عليه في الخلقة، ولم يخلق الله جل ثناؤه دابة في بطن أمها إلا منكبة على وجهها إلا ابن آدم، فإنه منتصب انتصابا؛ وهو قول النخعي ومجاهد وغيرهما [٨]، ابن كيسان: منتصبا رأسه في بطن أمه؛ فإذا أذن الله أن يخرج من بطن أمه قلب رأسه إلى رجلي أمه، وقال الحسن: يكابد مصائب الدنيا وشدائد الآخرة، وعنه أيضًا: يكابد الشكر على السراء ويكابد الصبر على الضراء؛ لأنه لا يخلو من أحدهما [٩]، ورواه ابن عمر، وقال يَمانٌ: لم يخلق الله خلقا يكابد ما يكابد ابن آدم ؛ وهو مع ذلك أضعف الخلق، قال علماؤنا: أول ما يكابد قطع سرته، ثم إذا قمط قماطًا، وشد رباطًا، يكابد الضيق والتعب، ثم يكابد الارتضاع،

(١، ٢) انظر : تفسير ابن أبي حاتم (١٢/ ٤٠٨) .

(٣) ضعيف : فهذا من طريق العوفيين، وفيه جهالة وضعف وانظر : تفسير الطبري (٣٠/ ٢١٢) .

(٤) حسن : أبو داود (٨) في الطهارة ، عن أبي هريرة وصححه الألباني هناك .

(٥) صحيح بمجموع الطرق والشواهد : رواه الطبري من طرق عدة ، عن ابن عباس يصحح بها ، وانظر تفسير الطبري (٣٠/ ٢١٢) .

(٦) كذا عند ابن أبي حاتم (١٢/ ٤٠٩) في تفسيره ، وصححه الحاكم كما في الدر المنثور (٦/ ٥٩٣) للسيوطي.

(٧) رواه الطبري (٣٠/ ٢١٢) في تفسيره .

(٨) فقد قاله الضحاك أيضًا ، وأبو صالح ، وابن شداد كما في تفسير الطبري (٣٠/ ٢١٢) ورواه عن إبراهيم ابن أبي حاتم (١٢/ ٤٠٩) ، وانظر الدر المنثور (٦/ ٥٩٢ ، ٥٩٣) للسيوطي.

(٩) كذا في تفسير ابن أبي حاتم (١٢/ ٤٠٩) .

ولو فاته لضاع، ثم يكابد نبت أسنانه، وتحرك لسانه، ثم يكابد الفطام، الذي هو أشد من اللطام، ثم يكابد الختان، والأوجاع والأحزان، ثم يكابد المعلم وصولته، والمؤدب وسياسته، والأستاذ وهيبته، ثم يكابد شغل التزويج والتعجيل فيه، ثم يكابد شغل الأولاد، والخدم والأجناد، ثم يكابد شغل الدور، وبناء القصور، ثم الكبر والهرم، وضعف الركبة والقدم، في مصائب يكثر تعدادها، ونوائب يطول إيرادها، من صداع الرأس، ووجع الأضراس، ورمد العين، وغم الدين، ووجع السن، وألم الأذن، ويكابد محنا في المال والنفس ، مثل الضرب والحبس ، ولا يمضى عليه يوم إلا يقاسي فيه شدة ، ولا يكابد إلا مشقة، ثم الموت بعد ذلك كله، ثم مساءلة الملك، وضغطة القبر وظلمته؛ ثم البعث والعرض على الله، إلى أن يستقر به القرار، إما في الجنة وإما في النار؛ قال الله تعالى﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ﴾، فلو كان الأمر إليه لما اختار هذه الشدائد، ودل هذا على أن له خالقا دبره، وقضى عليه بهذه الأحوال؛ فليمتثل أمره، وقال ابن زيد: الإنسان هنا آدم.

وقوله: ﴿فِي كَبَدٍ﴾ أي: في وسط السماء، وقال الكلبي: إن هذا نزل في رجل من بني جمح؛ كان يقال له أبو الأشدين، وكان يأخذ الأديم العكاظي فيجعله تحت قدميه، ويقول: من أزالني عنه فله كذا، فيجذبه عشرة حتى يتمزق ولا تزول قدماه؛ وكان من أعداء النبي ﷺ، وفيه نزل ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ [البلد: ٥] (١) يعني: لقوته، وروي عن ابن عباس، ومعنى ﴿فِي كَبَدٍ﴾ أي: شديداً، يعني شديد الخلق؛ وكان من أشد رجال قريش، وكذلك ركانة بن هشام بن عبد المطلب، وكان مثلا في البأس والشدة، وقيل﴿فِي كَبَدٍ﴾ أي: جريء القلب، غليظ الكبد، مع ضعف خلقته، ومهانة مادته، ابن عطاء: في ظلمة وجهل، الترمذي: مضيعًا ما يعنيه، مشتغلا بما لا يعنيه.

﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝﴾

قوله تعالى﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ أي: أيظن ابن آدم أن لن يعاقبه الله عز وجل﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ﴾ أي: أنفقت، ﴿مَالاً لُّبَدًا﴾ أي: كثيرًا مجتمعاً، ﴿أَيَحْسَبُ﴾ أي: أيظن، ﴿أَن لَّمْ يَرَهُ﴾ أي: أن لم يعاينه ﴿أَحَدٌ﴾ بل علم الله عز وجل ذلك منه، فكان كاذبا في قوله: ﴿أَهْلَكْتُ﴾ ولم يكن أنفقه، وروى أبو هريرة قال: يوقف العبد، فيقال ماذا عملت في المال الذي رزقتك؟ فيقول: أنفقته وزكيته، فيقال: كأنك إنما فعلت ذلك ليقال سخي، فقد قيل ذلك، ثم يؤمر به إلى النار، وعن سعيد عن قتادة: إنك مسؤول عن مالك من أين جمعت؟ وكيف أنفقت (٢)؟ وعن ابن عباس قال: كان أبو الأشدين يقول: أنفقت في عداوة محمد مالاً كثيرًا وهو في ذلك كاذب، وقال مقاتل: نَزَلَتْ في الحارث بن عامر بن نوفل، أذنب فاستفتى النبي ﷺ فأمره أن يُكَفِّر، فقال: لقد ذهب مالي في الكفارات والنفقات، منذ دخلت في دين محمد (٣)، وهذا القول منه يحتمل أن يكون استطالة بما

(١) ضعيف بل واه : الكلبي كذّاب، ثم إنه لم يدرك زمن النبوة ، وانظر الطبري (٣٠/ ٢١٤) في تفسيره .
(٢) صحيح إلى قتادة الطبري (٣٠/ ٢١٤) في تفسيره .
(٣)سبق أنه من طريق الكلبي فهو ضعيف، وانظر السابق نفسه .

أنفق، فيكون طغيانا منه، أو أسفا عليه، فيكون ندما منه، وقرأ أبو جعفر «مالاً لُبَّدًا» بتشديد الباء مفتوحة [١]، على جمع لابد؛ مثل رَاكع ورُكع، وسَاجد وسُجد، وشاهد وشُهد، ونحوه، وقرأ مجاهد وحميد بضم الباء واللام مخففًا، جمع لبود، الباقون بضم اللام وكسرها وفتح الباء مخففًا، جمع لبدة ولبدة، وهو ما تلبد؛ يريد الكثرة، وقد مضى في سورة «الجن» القول فيه، وروي عن النبي ﷺ أنه كان يقرأ: «أيَحسُب» بضم السين في الموضعين، وقال الحسن: يقول أتلفت مالاً كثيرًا، فمن يحاسبني به، دعني أحسبه، ألم يعلم أن الله قادر على محاسبته، وأن الله عز وجل يرى صنيعه، ثم عدد عليه نعمه فقال: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ﴾ يبصر بهما ﴿وَلِسَانًا﴾ ينطق به، ﴿وَشَفَتَيْنِ﴾ يستر بهما ثغره، والمعنى: نحن فعلنا ذلك، ونحن نقدر على أن نبعثه ونحصي عليه ما عمله، وقال أبو حازم: قال النبي ﷺ: «إن الله تعالى قال: يا بن آدم، إن نازعك لسانك فيما حرمت عليك، فقد أعنتك عليه بطبقين، فأطبق؛ وإن نازعك بصرك فيما حرمت عليك، فقد أعنتك عليه بطبقين، فأطبق؛ وإن نازعك فرجك إلى ما حرمت عليك، فقد أعنتك عليه بطبقين، فأطبق» [٢]، والشفة: أصلها شفهة، حذفت منها الهاء، وتصغيرها: شفيهة، والجمع: شفاه، ويقال: شفهات وشفوات، والهاء أقيس، والواو أعم، تشبيهًا بالسنوات، وقال الأزهري: يقال هذه شفة في الوصل وشفه، بالتاء والهاء، وقال قتادة: نعم الله ظاهرة، يقررك بها حتى تشكر.

﴿وَهَدَيْنَـٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾

يعني الطريقين: طريق الخير وطريق الشر، أي: بيناهما له بما أرسلناه من الرسل، والنجد، الطريق في ارتفاع، وهذا قول ابن عباس [٣] وابن مسعود وغيرهما، وروى قتادة قال: ذكر لنا أن النبي ﷺ كان يقول: «يا أيها الناس، إنما هما النجدان: نجد الخير، ونجد الشر، فلم تجعل نجد الشر أحب إليك من نجد الخير» [٤]، وروي عن عكرمة قال: النجدان: الثديان [٥]، وهو قول سعيد بن المسيب والضحاك، وروي عن ابن عباس وعليّ رضي الله عنهما [٦]؛ لأنهما كالطريقين لحياة الولد ورزقه، فالنجد: العلو، وجمعه نجود؛ ومنه سميت «نجد»، لارتفاعها عن انخفاض تهامة، فالنجدان: الطريقان العاليان، قال امرؤ القيس:

فريقانِ منهم جازعُ بَطْنِ نَخلةٍ وآخرُ منهم قَاطعُ نَجدِ كَبكبِ

(١) قراءة متواترة: كما في تقريب النشر (ص١٨٨).

(٢) ضعيف: قال السيوطي (٦/ ٥٩٤) في الدر المنثور: رواه ابن عساكر، وذكره ابن كثير (٨/ ٣١٦) من طريقه وسكت عنه.

(٣) قول ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في رواية العوفيين وهي ضعيفة: الخير والشر، ومن طريق ابن أبي طلحة: الهدى والضلالة وهو منقطع وهو حسن إلى ابن مسعود كما في تفسير الطبري (٣٠/ ٢١٥) وفيه عاصم بن بهدلة وهو صدوق له أوهام، وقاله عكرمة، ومجاهد، والضحاك، والحسن.

(٤) ذكره الطبري (٣٠/ ٢١٦) مرسلاً عن الحسن وقتادة ووصله ابن أبي حاتم (١٢/ ٤١٠) في تفسيره من طريق أنس. وقال الشوكاني (٨/ ١) في فتح القدير: تفرد به سنان بن سعد وقد تركه أحمد وضعفه الجوزجاني».

(٥) هذا غريب: وقد رواه الطبري (٣٠/ ٢١٧) في تفسيره من طريق جويبر عن الضحاك.

(٦) ورواه ابن أبي حاتم من عدة طرق عن ابن عباس كما في تفسيره (١٢/ ٤١٠).

﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۝ ﴾

أي: فهلا أنفق ماله الذي يزعم أنه أنفقه في عداوة محمد، هلا أنفقه لاقتحام العقبة فيأمن والاقتحام: الرمي بالنفس في شيء من غير روية؛ يقال منه: قحم في الأمر قحوما: أي: رمى بنفسه فيه من غير روية، وقحم الفرس فارسه، تقحيما على وجهه: إذا رماه، وتقحيم النفس في الشيء: إدخالها فيه من غير روية، والقُحمة بالضم المهلكة، والسنة الشديدة، يقال: أصابت الأعراب القُحمة: إذا أصابهم قحط، فدخلوا الريف، والقُحم: صعاب الطريق، وقال الفراء والزجاج: وذكر ﴿لا﴾ مرة واحدة، والعرب لا تكاد تفرد ﴿لا﴾ مع الفعل الماضي في مثل هذا الموضع، حتى يعيدوها في كلام آخر؛ كقوله تعالى ﴿فَلا صَدَّقَ وَلا صَلَّىٰ﴾ [القيامة: ٣١] ﴿لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢]، وإنما أفردوها لدلالة آخر الكلام على معناه؛ فيجوز أن يكون قوله ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البلد: ١٧] قائما مقام التكرير؛ كأنه قال: فلا اقتحم العقبة ولا آمن، وقيل: هو جار مجرى الدعاء؛ كقوله: لا نجا ولا سلم، ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ﴾ قال سفيان بن عيينة. كل شيء قال فيه: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ فإنه أخبر به، وكل شيء قال فيه ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ [الأحزاب: ٦٣] فإنه لم يخبر به وقال: معنى ﴿فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ أي: فلم يقتحم العقبة، كقول زهير:

وكان طُوى كشحًا على مستكنَّة فَلا هُو أبداها ولم يتَقدمِ

أي: فلم يبدها ولم يتقدم، وكذا قال المبرد وأبو علي ﴿لا﴾: بمعنى لم، وذكره البخاري عن مجاهد، أي: فلم يقتحم العقبة في الدنيا، فلا يحتاج إلى التكرير، ثم فسر العقبة وركوبها فقال ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ وكذا وكذا؛ فبين وجوها من القرب المالية، وقال ابن زيد وجماعة من المفسرين: معنى الكلام الاستفهام الذي معناه الإنكار؛ تقديره: أفلا اقتحم العقبة؛ أو هلا اقتحم العقبة، يقول: هلا أنفق ماله في فك الرقاب، وإطعام السغْبَان، ليجاوز به العقبة، فيكون خيرا له من إنفاقه في عداوة محمد ﷺ، ثم قيل: اقتحام العقبة ها هنا ضرب مثل، أي: هل تحمل عظام الأمور في إنفاق ماله في طاعة ربه، والإيمان به، وهذا إنما يليق بقول من حمل ﴿فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ على الدعاء؛ أي: فلا نجا ولا سلم من لم ينفق ماله في كذا وكذا، وقيل: شبه عظم الذنوب وثقلها وشدتها بعقبة، فإذا أعتق رقبة وعمل صالحًا، كان مثله كمثل من اقتحم العقبة، وهي الذنوب التي تضره وتؤذيه وتثقله، وقال ابن عمر: هذه العقبة جبل في جهنم[1]، وعن أبي رجاء قال: بلغنا أن العقبة مصعدها سبعة آلاف سنة، ومهبطها سبعة آلاف سنة[2]، وقال الحسن وقتادة: هي عقبة شديدة في النار دون الجسر، فاقتحموها بطاعة الله[3]، وقال مجاهد والضحاك والكلبي: هي الصراط يضرب على جهنم كحد السيف، مسيرة ثلاثة آلاف سنة، سهلاً وصعودًا وهبوطًا، واقتحامه على المؤمن كما بين صلاة العصر إلى العشاء[4]، وقيل: اقتحامه عليه قدر ما يصلي صلاة المكتوبة، وروي عن أبي الدرداء أنه قال: إن

(١) ضعيف جدًا: الطبري (٣٠/ ٢١٧) في تفسيره وفيه: عطية العوفى وهو ضعيف، وفيه عمر بن إسماعيل وهو ضعيف أيضًا.

(٢) هكذا رواه بلاغًا فهو ضعيف، وانظر ابن أبي حاتم، والطبري كما في الدر المنثور (٦/ ٥٩٦) في السيوطي.

(٣) صحيح: الطبري (٣٠/ ٢١٧) في تفسيره، وابن أبي حاتم (١٢/ ٤١٠) في تفسيره.

(٤) هذه مراسيل كلها: انظر الدر المنثور (٦/ ٥٩٦) للسيوطي.

وراءنا عقبة، أنجى الناس منها أخفهم حملاً[١]، وقيل: النار نفسها هي العقبة، فروى أبو رجاء عن الحسن قال: بلغنا أنه ما من مسلم يعتق رقبة إلا كانت فداءه من النار[٢]، وعن عبد الله بن عمر قال: من أعتق رقبة أعتق الله عز وجل بكل عضو منها عضواً منه، وفي «صحيح» مسلم عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ، قال: «من أعتق رقبة أعتق الله بكل عضو منها عضوا من أعضائه من النار، حتى فرجه بفرجه»[٣]، وفي الترمذي عن أبي أمامة وغيره من أصحاب النبي ﷺ قال: «أيما امرئ مسلم أعتق امرأ مسلمًا، كان فكاكه من النار، يجزي كل عضو منه عضوا منه، وأيما امرأة مسلمة أعتقت امرأة مسلمة، كانت فكاكها من النار، يجزي كل عضو منها عضواً منها»، قال: هذا حديث حسن صحيح غريب[٤]، وقيل: العقبة خلاصه من هول العرض، وقال قتادة وكعب: هي نار دون الجسر، وقال الحسن: هي والله عقبة شديدة[٥]: مجاهدة الإنسان نفسه وهواه وعدوه الشيطان، وأنشد بعضهم:

إني بُليت بأربعٍ يَرمينني ... بالنبل قد نَصبوا عليَّ شِراكا
إبليسُ والدنيا ونفسي والهوى ... من أين أرجو بينهن فكاكا
يَا رب سَاعدني بعفوٍ إنني ... أصبحتُ لا أرجو لَهن سِواكا

﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ ﴾

فيه حذف، أي: وما أدراك ما اقتحام العقبة، وهذا تعظيم لالتزام أمر الدين؛ والخطاب للنبي ﷺ، ليعلمه اقتحام العقبة، قال القشيري: وحمل العقبة على عقبه جهنم بعيد؛ إذ أحد في الدنيا لم يقتحم عقبة جهنم؛ إلا أن يحمل على أن المراد فهلا صير نفسه بحيث يمكنه اقتحام عقبة جهنم غدا، واختار البخاري قول مجاهد: إنه لم يقتحم العقبة في الدنيا[٦]، قال ابن العربي: وإنما اختار ذلك لأجل أنه قال بعد ذلك في الآية الثانية ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ﴾؟ ثم قال في الآية الثالثة: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾، وفي الآية الرابعة: ﴿أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾، ثم قال في الآية الخامسة: ﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾، ثم قال في الآية السادسة: ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾؛ فهذه الأعمال إنما تكون في الدنيا، المعنى: فلم يأت في الدنيا بما يسهل عليه سلوك العقبة في الآخرة[٧]، وقال سفيان بن عيينة: كل شيء قال فيه ﴿وما أدراك﴾؟ فإنه أخبر به، وكل شيء قال فيه ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾؟ [الأحزاب: ٦٣] فإنه لم يخبر به.

---

(١) قال الهيثمي (٣/ ٩٧) في المجمع: «رواه الطبراني ورجاله ثقات».
(٢) مرسل حسن: ولكن رواه بلاغًا كما عند الطبري (٣٠/ ٢١٨) في تفسيره.
(٣) صحيح: مسلم (١٥٠٩) في العتق.
(٤) حسن صحيح غريب: الترمذي (١٥٤٧) في النذور وصححه الألباني هناك.
(٥) حسن إلى كعب والحسن: الطبري (٣٠/ ٢١٨) في تفسيره.
(٦) كذا في كتاب التفسير باب (٩٠) سورة (لا أقسم) الفتح (٨/ ٧٠٣).
(٧) أحكام القرآن لابن العربي (٤/ ١٩٣٩).

﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾

﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى :قوله تعالى﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ فكها: خـلاصها من الأسر، وقـيل: من الرق، وفي الحديث: «وفك الرقبة أن تعين في ثمنها» [١]، من حديث البراء، وقد تقـدم في سورة «التوبة» ، والفك: هو حل القيد؛ والرق قيد، وسـمي المرقوق رقبة؛ لأنه بالرق كالأسير المربوط في رقبته، وسـمي «عتقها» فكًا [لأنه] كفك الأسير من الأسر، قال حسان:

كم مِن أسيرٍ فككناه بلا ثَمنٍ وَجَزِّ نَاصيةٍ كنا مواليها

وروى عقبـة بن عامر الجُهَني أن رسول الله ﷺ قـال: «من أعتق رقبة مـؤمنة، كانت فداءه من النار» [٢] . قال الماوردي: ويحتمل ثانيـا أنه أراد فك رقبته وخلاص نفسه، بـاجتناب المعاصي، وفعل الطاعات؛ ولا يمتنع الخبر من هذا التأويل، وهو أشبه بالصواب.

الثانية :قوله تعالى﴿رَقَبَةٍ﴾ قال أصبغ: الرقبة الكافرة ذات الثمن أفضل في العتق من الرقبة المؤمنة القليلة الثمـــن؛ لقول النـبي ﷺ «وقد سئل أي: الرقاب أفضل؟ قـــال: «أغلاها ثمنًا وأنفـسها عند أهلها» [٣]، ابن العربي: والمراد في هذا الحديث: من المسلمين؛ بدليل قوله عليه الصلاة السلام: «من أعتق امرأ مسلما» «ومن أعتق رقبة مؤمنة»، وما ذكره أصبغ وهلة؛ وإنما نظر إلى تنقيص المال، والنظر إلى تجريد المعتق للعبادة، وتفريغه للتوحيد أولى [٤].

الثالثة :العتق والصـدقة من أفضل الأعمال، وعن أبي حـنيفة: أن العتق أفضـل من الصدقة، وعند صاحـبيه الصدقـة أفضل، والآية أدل على قول أبي حنيفـة؛ لتقديم العتق على الصـدقة، وعن الشعبي في رجل عنده فضل نفقة: أيضعه في ذي قـرابة أو يعتق رقبة؟ قال: الرقبة أفضل؛ لأن النبي ﷺ قال: «من فك رقبة؛ فك الله بكل عضو منها عضوا من النار» [٥].

﴿أَوْ إِطْعَـٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ۝١٤ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝١٥ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ۝١٦﴾

قوله تعالى: ﴿أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾ أي: مجاعة، والسـغب: الجوع، والساغب: الجائع، وقرأ الحسن: « أو إطعام في يوم ذا مسغبة» بالألف في ﴿ذَا﴾ ـ وأنشد أبو عبيدة:

فلو كنتَ جارا يا بن قيسِ بن عاصمٍ لما بت شبعانًا وجارُك سَاغبًا

وإطعام الطعام فـضيلة، وهو مع السغب الذي هو الجوع أفضل، وقال النخـعي في قوله تعالى:

---

(١) صحـيح : سنن الدارقطني (٢/ ١٣٥) ، وأحمد (١٨٥٥٤) وصـححه الحـاكم (٢/ ٢١٧) في المستدرك ووافـقه الذهبي ضمن حديث طويل .

(٢) صحيح : الحـاكم (٢٨٤١) في المستدرك ، وصحـحه الألباني (٦٠٥٠) في صحيح الجـامع من طريق آخر ، في العتق .

(٣) [illegible] : البخاري (٢٥١٨) ، ومسلم (٨٤/ ١٣٦) في الإيمان ، عن أبي ذر الغفاري ـ رضي الله عنه .

(٤) أحكام القرآن (٤/ ١٩٢٤) للقاضي ابن العربي .

(٥) [illegible]حيح : وقد سبق .

obeikandi.com

﴿أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾ قال: في يوم عزيز فيه الطعام، وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «من موجبات الرحمة إطعام المسلم السغبان» (١). ﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ أي: قرابة، يقال: فلان ذو قرابتي وذو مقربتي، يعلمك أن الصدقة على القرابة أفضل منها على غير القرابة، كما أن الصدقة على اليتيم الذي لا كافل له أفضل من الصدقة على اليتيم الذي يجد من يكفله، وأهل اللغة يقولون: سُمي يتيمًا لضعفه، يقال: يتم الرجل يُتمًا: إذا ضعف، وذكروا أن اليتيم في الناس من قبل الأب، وفي البهائم من قبل الأمهات، وقد مضى في سورة «البقرة» مستوفى، وقال بعض أهل اللغة: اليتيم الذي يموت أبواه، وقال قيس بن الملوح:

إلى الله أشْكُو فَقْدَ ليلى كما شكا ... إلى الله فَقْدَ الوالدينِ يتيمُ

قوله تعالى: ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ أي: لا شيء له، حتى كأنه قد لصق بالتراب من الفقر، ليس له مأوى إلا التراب، قال ابن عباس: هو المطروح على الطريق، الذي لا بيت له (٢)، مجاهد: هو الذي لا يقيه من التراب لباس ولا غيره (٣)، وقال قتادة: إنه ذو العيال (٤)، عكرمة: المديون، أبو سنان: ذو الزمانة، ابن جبير: الذي ليس له أحد، وروى عكرمة عن ابن عباس: ذو المتربة: البعيد التربة؛ يعني الغريب البعيد عن وطنه (٥)، وقال أبو حامد الخارزنجي: المتربة هنا: من التريب؛ وهي شدة الحال، يقال ترب: إذا افتقر، قال الهذلي:

وكنا إذا ما الضيفُ حَلَّ بأرضنا ... سَفكنا دماءَ البُدنِ في تُربة الحالِ

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي: «فَكَّ» بفتح الكاف (٦)، على الفعل الماضي، «رقبةً» نصبا لكونها مفعولا «أو أطْعَمَ» بفتح الهمزة نصب الميم، من غير ألف (٧)، على الفعل الماضي أيضا؛ لقوله ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البلد: ١٧] فهذا أشكل بـ «فَكَ» و«أطعم»، وقرأ الباقون: ﴿فَكُّ﴾ رفعًا، على أنه مصدر فككت، ﴿رَقَبَةٍ﴾ خفض بالإضافة، ﴿أَوْ إِطْعَامٌ﴾ بكسر الهمزة وألف ورفع الميم وتنوينها على المصدر أيضًا، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم؛ لأنه تفسير لقوله تعالى ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ﴾؟ ثم أخبره فقال ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ أَوْ إِطْعَامٌ﴾، المعنى: اقتحام العقبة: فك رقبة أو إطعام، ومن قرأ بالنصب فهو محمول على المعنى؛ أي: ولا فك رقبة، ولا أطعم في يوم ذا مسغبة؛ فكيف يجاوز العقبة؟! وقرأ الحسن وأبو رجاء «ذا مسغبة» بالنصب على أنه مفعول ﴿إِطْعَامٌ﴾ أي: يطعمون ذا مسغبة و﴿يَتِيمًا﴾ بدل منه، الباقون ﴿ذِي مَسْغَبَةٍ﴾ فهو صفة لـ ﴿يَوْمٍ﴾، ويجوز أن تكون قراءة النصب صفة لموضع الجار والمجرور لأن قوله: ﴿فِي يَوْمٍ﴾ ظرف منصوب الموضع، فيكون وصفا له على المعنى دون اللفظ.

---

(١) ضعيف: الحاكم وصححه، والبيهقي مرسلاً ومتصلا، وأبو الشيخ في الثواب كلهم، عن جابر ـ رضي الله عنهما ـ كما في الترغيب (٢/ ٣٥)، وانظر الحاكم برقم (٣٩٣٥) وسنده ضعيف.

(٢) صحيح إلى ابن عباس: الطبري (٣٠/ ٢٢١) في تفسيره وهو على شرط البخاري وهو عند الحاكم (٢/ ٥٧٠) في المستدرك.

(٣) صحيح إلى مجاهد: الطبري (٣٠/ ٢٢١) في تفسيره.

(٤) حسن: الطبري (٣٠/ ٢٢٢).

(٥) كذا عند ابن أبي حاتم (١٢/ ٤١١) في تفسيره.

(٦، ٧) قراءتان متواترتان كما في تقريب النشر (ص ١٨٩).

﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ ۝١٧ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝١٨ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝١٩ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ ۝٢٠ ﴾

قوله تعالى ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ يعني: أنه لا يقتحم العقبة من فك رقبة، أو أطعم في يوم ذي مسغبة، حتى يكون من الذين آمنوا؛ أي: صدقوا، فإن شرط قبول الطاعات الإيمان بالله، فالإيمان بالله بعد الإنفاق لا ينفع، بل يجب أن تكون الطاعة مصحوبة بالإيمان، قال الله تعالى في المنافقين ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ﴾، [التوبة: ٥٤]، وقالت عائشة: يا رسول الله، إن ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم، ويطعم الطعام، ويفك العاني، ويعتق الرقاب، ويحمل على إبله لله، فهل ينفعه ذلك شيئا؟ قال: «لا، إنه لم يقل يوما رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين» (١)، وقيل ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أي: فعل هذه الأشياء وهو مؤمن، ثم بقي على إيمانه حتى الوفاة؛ نظيره قوله تعالى ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢]، وقيل: المعنى: ثم كان من الذين يؤمنون بأن هذا نافع لهم عند الله تعالى، وقيل: أتى بهذه القرب لوجه الله، ثم آمن بمحمد ﷺ، وقد قال حكيم بن حزام بعدما أسلم، يا رسول الله، إنا كنا نتحنث بأعمال في الجاهلية، فهل لنا منها شيء؟ فقال عليه الصلاة السلام: «أسلمت على ما أسلفت من الخير» (٢)، وقيل: إن ﴿ ثُمَّ ﴾ بمعنى الواو؛ أي: وكان هذا المعتق الرقبة، والمطعم في المسغبة، من الذين آمنوا، ﴿وَتَوَاصَوْا﴾ أي: أوصى بعضهم بعضًا، ﴿بِالصَّبْرِ﴾ أي: بالصبر على طاعة الله، وعن معاصيه؛ وعلى ما أصابهم من البلاء والمصائب، ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ بالرحمة على الخلق؛ فإنهم إذا فعلوا ذلك رحموا اليتيم والمسكين.

قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ أي: الذين يؤتون كتبهم بأيمانهم؛ قاله محمد بن كعب القرظي وغيره، وقال يحيى بن سلام: لأنهم ميامين على أنفسهم، ابن زيد: لأنهم أخذوا من شق آدم الأيمن، وقيل: لأن منزلتهم عن اليمين؛ قاله ميمون بن مهران، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي: كفروا بالقرآن، ﴿هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ أي: يأخذون كتبهم بشمائلهم؛ قاله محمد بن كعب، يحيى بن سلام: لأنهم مشائيم على أنفسهم، ابن زيد: لأنهم أخذوا من شق آدم الأيسر، ميمون: لأن منزلتهم عن اليسار.

قلت: ويجمع هذه الأقوال أن يقال: إن أصحاب الميمنة أصحاب الجنة، وأصحاب المشأمة أصحاب النار؛ قال الله تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ۝٢٧ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾ [الواقعة: ٢٨]، وقال ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ۝٤١ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ﴾ [الواقعة: ٤٢]، وما كان مثله، ومعنى ﴿مُؤْصَدَةٌ﴾ أي: أجبال مطبقة مغلقة، قال:

تَحنُّ إلى جِبالِ مكةَ ناقتي ومن دُونها أبواب صَنْعاءَ مُؤصده

وقيل: مبهمة، لا يدري ما داخلها، وأهل اللغة يقولون: أوصدت الباب وآصدته؛ أي: أغلقته،

---

(١) صحيح: مسلم (٢١٤) في الإيمان.

(٢) صحيح: مسلم (١٢٣) في الإيمان، وتحنث: تتعبد، وقيل: يفعل فعلا يخرج به من الإثم والحرج، النهاية (١/ ٤٤٩).

فمن قـال أوصدت، فالاسم الوصـاد، ومن قال آصدته، فالاسم الإصـاد، وقرأ أبو عمـرو وحفص وحمـزة ويعقـوب والشيزري عن الـكسائي : ﴿مُؤْصَدَةٌ﴾ بالهمـز هنا، وفي «الهُمزة»، الباقون بلا همز[1]، وهما لغتان، وعن أبي بكر بن عيـاش قال: لنا إمام يهمز ﴿مُؤْصَدَةٌ﴾ فأشتهي أن أسد أذني إذا سمعته.

(١) قراءة متواترة : كما في تقريب النشر (ص٣١) .

obeikandl.com

سـورة الشمس

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝ ﴾

قال مجاهد ﴿وَضُحَاهَا﴾ أي ضوؤها وإشراقها [١]، وهو قسم ثان، وأضاف الضحى إلى الشمس، لأنه إنما يكون بارتفاع الشمس، وقال قتادة: نهارها؛ السدي: حرها، وروى الضحاك عن ابن عباس: ﴿وَضُحَاهَا﴾ قال: جعل فيها الضوء وجعلها حارة [٢]، وقال اليزيدي: هو انبساطها، وقيل: ما ظهر بها من كل مخلوق؛ فيكون القسم بها وبمخلوقات الأرض كلها، حكاه الماوردي والضحى: مؤنثة، يقال: ارتفعت الضحى فوق الضحو، وقد تذكر، فمن أنث ذهب إلى أنها جمع ضحوة، ومن ذكر ذهب إلى أنه اسم على فعل، نحو صرد ونغر، وهو ظرف غير متمكن مثل سحر، تقول: لقيته «ضحىً وضُحَى»؛ إذا أردت به ضحا يومك لم تنونه، وقال الفراء: الضحى هو النهار؛ كقول قتادة، والمعروف عند العرب: أن الضحى إذا طلعت الشمس وبعيد ذلك قليلاً ، فإذا زاد فهو الضحاء بالمد، ومن قال: الضحى: النهار كله، فذلك لدوام نور الشمس، ومن قال: إنه نور الشمس أو حرها، فنور الشمس لا يكون إلا مع حر الشمس، وقد استدل من قال: إن الضحى حر الشمس بقوله تعالى ﴿وَلَا تَضْحَىٰ﴾ [طه: ١١٩] أي لا يؤذيك الحر، وقال المبرد: أصل الضحى من الضح، وهو نور الشمس، والألف مقلوبة من الحاء الثانية، تقول: ضحوة وضحوات، وضحى، فالواو من ضحوة مقلوبة عن الحاء الثانية، والألف في ضحى مقلوبة عن الواو، وقال أبو الهيثم: الضح: نقيض الظل، وهو نور الشمس على وجه الأرض، وأصله «الضُحى» فاستثقلوا الياء مع سكون الحاء، فقلبوها ألفا.

﴿ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ﴾ ﴿ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝ ﴾

أي: تبعها وذلك إذا سقطت رؤي الهلال، يقال: تلوت فلانا: إذا تبعته، قال قتادة: إنما ذلك ليلة الهلال، إذا سقطت الشمس رؤي الهلال، وقال ابن زيد: إذا غربت الشمس في النصف الأول من الشهر، تلاها القمر بالطلوع، وفي آخر الشهر يتلوها بالغروب؛ الفراء﴿تَلَاهَا﴾: أخذ منها، يذهب إلى أن القمر يأخذ من ضوء الشمس، وقال قوم: ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا﴾ حين استوى واستدار، فكان مثلها في الضياء والنور؛ وقاله الزجاج.

---

(١) صحيح إلى مجاهد : الطبري (٣٠/ ٢٢٥) .

ورواه الحاكم صحيحًا من طريق مجاهد عن ابن عباس (٢/ ٥٧٢) في المستدرك.

(٢) منقطع : بين الضحاك وابن عباس ـ رضي الله عنهما وانظر السابق .

﴿ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝ ﴾

أي: كشفها، فقال قوم: جلى الظلمة؛ وإن لم يجر لها ذكر؛ كما تقول: أضحت باردة، تريد أضحت غداتنا باردة، وهذا قول الفراء والكلبي وغيرهما، وقال قوم: الضمير في ﴿جَلَّاهَا﴾ للشمس؛ والمعنى: أنه يبين بضوئه جرمها، ومنه قول قيس بن الخطيم:

تجلت لنا كالشمسِ تحت غمامةٍ بدا حَاجبٌ منها وضَنَّت بحاجب

وقيل: جلى ما في الأرض من حيوانها حتى ظهر، لاستتاره ليلاً وانتشاره نهاراً، وقيل: جلى الدنيا، وقيل: جلى الأرض؛ وإن لم يجر لها ذكر؛ ومثله قوله تعالى ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾ [ص: ٣٢] على ما تقدم آنفا.

﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ۝ ﴾

أي: يغشى الشمس، فيذهب بضوئها عند سقوطها؛ قاله مجاهد [١] وغيره، وقيل: يغشى الدنيا بالظلم، فتظلم الآفاق، فالكناية ترجع إلى غير مذكور.

﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝ ﴾

أي: وبنيانها، فما مصدرية؛ كما قال: ﴿بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي﴾ [يس: ٢٧] أي بغفران ربي؛ قاله قتادة، واختاره المبرد، وقيل: المعنى ومن بناها؛ قاله الحسن ومجاهد؛ وهو اختيار الطبري [٢]، أي: ومن خلقها ورفعها، وهو الله تعالى، وحكي عن أهل الحجاز: سبحان ما سبحت له؛ أي سبحان من سبحت له.

﴿ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝ ﴾

أي: وطحوها، وقيل: ومن طحاها؛ على ما ذكرناه آنفا، أي: بسطها؛ كذا قال عامة المفسرين؛ مثل دحاها، قال الحسن ومجاهد وغيرهما: طحاها ودحاها: واحد [٣]؛ أي: بسطها من كل جانب، والطحو: البسط؛ طحى يطحو طحواً، وطحى يطحي طحيا، وطحيت: اضطجعت؛ عن أبي عمرو، وعن ابن عباس: طحاها: قسمها [٤]، وقيل: خلقها؛ قال الشاعر:

وما تدري جَذيمةُ مَنْ طَحَاهَا ولا مَنْ سَاكَنَ العرش الرفيع

الماوردي: ويحتمل أنه ما خرج منها من نبات وعيون وكنوز؛ لأنه حياة لما خلق عليها، ويقال في بعض أيمان العرب: لا، والقمر الطاحي؛ أي: المشرف المشرق المرتفع، قال أبو عمرو: طحى الرجل: إذا ذهب في الأرض، يقال: ما أدري أين طحى! ويقال: طحى به قلبه: إذا ذهب به في كل شيء، قال علقمة:

(١، ٢) صحيح إلى مجاهد وقتادة: الطبري (٣٠/ ٢٢٥) في تفسيره.
(٣) صحيح: انظر السابق.
(٤) منقطع: بين علي بن أبي طلحة وابن عباس. الطبري (٣٠/ ٢٢٨) في تفسيره.

طحا بك قَلْبٌ في الحِسانِ طَروبُ بُعيد الشبابِ عَصر حانَ مَشيبُ

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ ﴾

قيل: المعنى وتسويتها، فـ﴿ما﴾: بمعنى المصدر، وقيل: المعنى ومن سواها، وهو الله عز وجل، وفي النفس قولان: أحدهما آدم، الثاني: كل نفس منفوسة، وسوى: بمعنى هيأ، وقال مجاهد: سواها: سوى خلقها وعدل، وهذه الأسماء كلها مجرورة على القسم، أقسم جل ثناؤه بخلقه لما فيه من عجائب الصنعة الدالة عليه.

﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝ ﴾

قوله تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا﴾ أي عرفها؛ كذا روى ابن أبي نجيح عن مجاهد، أي عرفها طريق الفجور والتقوى [(١)]؛ وقاله ابن عباس [(٢)]، وعن مجاهد أيضا: عرفها الطاعة والمعصية، وعن محمد بن كعب قال: إذا أراد الله عز وجل بعبده خيرا، ألهمه الخير فعمل به، وإذا أراد به السوء، ألهمه الشر فعمل به، وقال الفراء﴿فَأَلْهَمَهَا﴾ قال: عرفها طريق الخير وطريق الشر؛ كما قال: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠]، وروى الضحاك عن ابن عباس قال: ألهم المؤمن المتقي تقواه، وألهم الفاجر فجوره[(٣)]، وعن سعيد عن قتادة قال: بين لها فجورها وتقواها [(٤)]، والمعنى متقارب، وروي عن أبي هريرة قال: قرأ رسول الله ﷺ ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ فقال: « اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها» [(٥)]، ورواه جويبر عن الضحاك عن ابن عباس: أن النبي ﷺ كان إذا قرأ هذه الآية﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ رفع صوته بها، وقال: « اللهم آت نفسي تقواها، أنت وليها ومولاها، وأنت خير من زكاها» [(٦)]، وفي «صحيح» مسلم، عن أبي الأسود الديلي قال: قال لي عمران بن حصين: أرأيت ما يعمل الناس اليوم، ويكدحون فيه، أشيء قضي عليهم ومضى عليهم من قدر ما سبق، أو فيما يستقبلون به مما أتاهم به نبيهم، وثبتت الحجة عليهم؟ فقلت: بل شيء قضي عليهم، ومضى عليهم، قال: فقال: أفلا يكون ظلما؟ قال: ففزعت من ذلك فزعا شديدا، وقلت: كل شيء خلق الله وملك يده، فلا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون، فقال لي: يرحمك الله إني لم أرد بما سألتك إلا لأحزر عقلك، إن رجلين من مزينة أتيا رسول الله ﷺ فقالا: يا رسول الله، أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه: أشيء قضي عليهم ومضى فيهم من قدر قد سبق،

(١) صحيح إليه: الطبري (٣٠/ ٢٢٨) في تفسيره .

(٢) صحيح : وسبق تخريجه .

(٣) منقطع : بين الضحاك وابن عباس ـ رضي الله عنهما وانظر التالي .

(٤) صحيح إلى قتادة : الطبري (٣/ ٢٢٨) في تفسيره .

(٥) الحديث بهذا السياق رواه ابن أبي حاتم (١٢/ ٤١٣) في تفسيره ، والدعاء رواه مسلم (٢٧٢٢) في الذكر والدعاء، عن زيد بن أرقم ـ رضي الله عنه .

(٦) ضعيف جدًا : جويبر هالك ، والضحاك لم يلق ابن عباس ، ورواه الهيثمي من طريق آخر (٧/ ١٣٨) في المجمع ، وعزاه للطبراني بإسناد حسن .

أو فيما يستقبلون به مما أتاهم به نبيهم، وثبتت الحجة عليهم؟ فقال: «لا بل شيء قضي عليهم ومضى فيهم، وتصديق ذلك في كتاب الله عز وجل: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾» (١)، والفجور والتقوى: مصدران في موضع المفعول به.

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝ ﴾

قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾ هذا جواب القسم، بمعنى: لقد أفلح، قال الزجاج: اللام حذفت، لأن الكلام طال، فصار طوله عوضا منها، وقيل: الجواب محذوف؛ أي والشمس وكذا وكذا لتبعثن، الزمخشري (٢): تقديره ليدمدمن الله عليهم؛ أي على أهل مكة، لتكذيبهم رسول الله ﷺ، كما دمدم على ثمود؛ لأنهم كذبوا صالحا، وأما ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾ فكلام تابع؛ لقوله: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ على سبيل الاستطراد، وليس من جواب القسم في شيء، وقيل: هو على التقديم والتأخير بغير حذف؛ والمعنى: قد أفلح من زكاها، وقد خاب من دساها، والشمس وضحاها، ﴿أَفْلَحَ﴾ فاز، ﴿ مَن زَكَّاهَا﴾ أي من زكى الله نفسه بالطاعة، ﴿ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ أي خسرت نفس دساها الله عز وجل بالمعصية، وقال ابن عباس: خابت نفس أضلها الله وأغواها (٣)، وقيل: أفلح من زكى نفسه بطاعة الله، وصالح الأعمال، وخاب من دس نفسه في المعاصي؛ قاله قتادة وغيره، وأصل الزكاة: النمو والزيادة، ومنه زكا الزرع: إذا كثر ريعه، ومنه تزكية القاضي للشاهد؛ لأنه يرفعه بالتعديل، وذكر الجميل، وقد تقدم هذا المعنى في أول سورة «البقرة» مستوفى، فمصطنع المعروف والمبادر إلى أعمال البر، شهر نفسه ورفعها، وكانت أجواد العرب تنزل الربا وارتفاع الأرض، ليشتهر مكانها للمعتفين (٤)، وتوقد النار في الليل للطارقين، وكانت اللئام تنزل الأولاج (٥) والأطراف والأهضام، ليخفى مكانها عن الطالبين، فأولئك علوا أنفسهم وزكوها، وهؤلاء أخفوا أنفسهم ودسوها، وكذا الفاجر أبدًا خفي المكان، زمر (٦) المروءة غامض الشخص، ناكس الرأس بركوب المعاصي، وقيل: ﴿دَسَّاهَا﴾: أغواها، قال:

وأنت الذي دسيت عمرًا فأصبحت حَلائلهُ منه أرامل ضُيعا

قال أهل اللغة: والأصل: دسسها، من التدسيس، وهو إخفاء الشيء، فأبدلت سينه ياء؛ كما يقال: قصيت أظفاري؛ وأصله قصصت أظفاري، ومثله قولهم في تقضض: تقضي، وقال ابن الأعرابي: ﴿ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ أي: دس نفسه في جملة الصالحين وليس منهم.

---

(١) صحيح: مسلم (٢٦٥٠) في القدر ومعنى « لأحرز عقلك» أي: لأختبرك وأمتحنك بشرح النووي (٤/ ٢٠٤١).
(٢) الكشاف (٤/ ٢١٦).
(٣) بنحوه عند الطبري منقطعًا بين علي بن أبي طلحة وابن عباس ـ رضي الله عنهما ، وابن أبي حاتم (١٢/ ٤١٥) في تفسيره.
(٤) المعتفين: من العافية والعفاة وهم: طلاب المعروف، أو طلاب الفضل والرزق ـ (اللسان).
(٥) الأولاج: ج (ولجة) وهو كل موضع ليستتر فيه كالكهف أو غيره ـ اللسان.
(٦) زمر المروءة: قليلها، كما في اللسان.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَىٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا﴾ أي بطغيانها، وهو خروجها عن الحد في العصيان؛ قاله مجاهد وقتادة وغيرهما [١]، وعن ابن عباس ﴿بِطَغْوَاهَا﴾ أي بعذابها الذي وعدت به، قال: وكان اسم العذاب الذي جاءها الطغوي؛ لأنه طغى عليهم [٢]، وقال محمد بن كعب ﴿بِطَغْوَاهَا﴾ بأجمعها، وقيل: هو مصدر، وخرج على هذا المخرج، لأنه أشكل برؤوس الآي، وقيل: الأصل بطغياها، إلا أن «فَعْلَى» إذا كانت من ذوات الياء أبدلت في الاسم واوًا، ليفصل بين الاسم والوصف، وقراءة العامة بفتح الطاء، وقرأ الحسن والجحدري وحماد بن سلمة بضم الطاء [٣] على أنه مصدر؛ كالرُّجعى والحسنى وشبههما في المصادر، وقيل: هما لغتان، ﴿إِذِ انْبَعَثَ﴾ أي نهض، ﴿أَشْقَاهَا﴾ لعقر الناقة، واسمه قدار بن سالف، وقد مضى في «الأعراف» بيان هذا [٤]، وهل كان واحدًا أو جماعة، وفي البخاري عن عبد الله بن زمعة أنه سمع النبي ﷺ يخطب، وذكر الناقة والذي عقرها، فقال رسول الله ﷺ: « إذا انبعث أشقاها ، انبعث لها رجل عزيز عارم [٥]، منيع فى رهطه مثل أبى زمعة » قلت : الله ورسوله أعلم، وذكر الحديث ، وخرجه مسلم أيضًا [٦] . وروى الضحاك عن علي أن النبي ﷺ قال له: «أتدري من أشقى الأولين» قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «عاقر الناقة»، قال: «أتدري من أشقى الآخرين» قلت: الله ورسوله أعلم . قال: «قاتلك» [٧]. ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ﴾ يعني صالحا، ﴿نَاقَةَ اللَّهِ﴾ ﴿نَاقَةَ﴾ منصوب على التحذير؛ كقولك: الأسد الأسد، والصبي الصبي، والحذار الحذار، أي احذروا ناقة الله؛ أي عقرها، وقيل: ذروا ناقة الله، كما قال ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٧٣]، ﴿وَسُقْيَاهَا﴾ أي ذروها وشربها، وقد مضى في سورة «الشعراء» بيانه والحمد لله، وأيضا في سورة ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾ [القمر: ١]، فإنهم لما اقترحوا الناقة، وأخرجها لهم من الصخرة، جعل لهم شرب يوم من بئرهم، ولها شرب يوم مكان ذلك، فشق ذلك عليهم، ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أي كذبوا صالحًا عليه السلام في قوله لهم: « إنكم تعذبون إن عقرتموها»، ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ أي عقرها الأشقى، وأضيف إلى الكل، لأنهم رضوا بفعله، وقال قتادة: ذكر لنا أنه لم يعقرها حتى تابعه صغيرهم وكبيرهم، ذكرهم وأنثاهم، وقال الفراء: عقرها اثنان: والعرب

(١) صحيح إليهما : الطبري (٣٠/ ٢٣١) .

(٢) هكذا عند الطبري (٣٠/ ٢٣١) من طريق ابن عباس وفي إسناده ضعف .

(٣) قراءة متواترة : كما في المحرر الوجيز (١٦/ ٣١٢) لابن عطية .

(٤) عند الآية (٧٧) .

(٥) عارم : شرير خبيث اللسان «عرم».

(٦) متفق عليه : البخاري (٤٩٤٢) في التفسير ، ومسلم (٢٨٥٥) في صفة الجنة .

(٧) منقطع : بين الضحاك وعلي ـ رضي الله عنهما .

قلت : وله إسناد حسن عند ابن أبي حاتم (١٢/ ٤١٤) وعند أحمد في المسند ، عن عمار بن ياسر ـ رضي الله عنهما .

تقول: هذان أفضل الناس، وهذان خير الناس، وهذه المرأة أشقى القوم؛ فلهذا لم يقل: أشقياها.

قوله تعالى: ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ﴾ أي أهلكهم وأطبق عليهم العذاب بذنبهم الذي هو الكفر والتكذيب والعقر، وروى الضحاك عن ابن عباس قال: دمدم عليهم قال: دمر عليهم ربهم بذنبهم؛ أي: بجرمهم [1]، وقال الفراء: دمدم أي: أرجف، وحقيقة الدمدمة تضعيف العذاب وترديده، ويقال: دممت على الشيء أي: أطبقت عليه، ودمم عليه القبر: أطبقه، وناقة مدومة: ألبسها الشحم، فإذا كررت الإطباق قلت: دمدمت، والدمدمة: إهلاك باستئصال؛ قاله المؤرج، وفي الصحاح: ودمدمت الشيء: إذا ألزقته بالأرض وطحطحته، ودمدم الله عليهم: أي: أهلكهم، القشيري: وقيل دمدمت على الميت التراب: أي: سويت عليه، فقوله: ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: أهلكهم، فجعلهم تحت التراب، ﴿فَسَوَّاهَا﴾ أي: سوى عليهم الأرض، وعلى الأول ﴿فَسَوَّاهَا﴾ أي: فسوى الدمدمة والإهلاك عليهم، وذلك أن الصيحة أهلكتهم، فأتت على صغيرهم وكبيرهم، وقال ابن الأنباري: دمدم أي: غضب، والدمدمة: الكلام الذي يزعج الرجل، وقال بعض اللغويين: الدمدمة: الإدامة؛ تقول العرب: ناقة مدمدمة أي: سمينة، وقيل﴿فَسَوَّاهَا﴾ أي: فسوى الأمة في إنزال العذاب بهم، صغيرهم وكبيرهم، وضيعهم وشريفهم، وذكرهم وأنثاهم، وقرأ ابن الزبير: «فدهدم» وهما لغتان؛ كما يقال: امتقع لونه وانتقع.

﴿ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ١٥ ﴾

أي: فعل الله ذلك بهم غير خائف أن تلحقه تبعة الدمدمة من أحد؛ قاله ابن عباس والحسن وقتادة ومجاهد [2]، والهاء في ﴿عُقْبَاهَا﴾ ترجع إلى الفعلة؛ كقوله: «من اغتسل يوم الجمعة فبها ونعمت» [3] أي: بالفعلة والخصلة، قال السدي والضحاك والكلبي: ترجع إلى العاقر؛ أي: لم يخف الذي عقرها عقبى ما صنع، وقاله ابن عباس أيضا، وفي الكلام تقديم وتأخير، مجازه: إذ انبعث أشقاها ولا يخاف عقباها، وقيل: لا يخاف رسول الله صالح عاقبة إهلاك قومه، ولا يخشى ضررا يعود عليه من عذابهم؛ لأنه قد أنذرهم، ونجاه الله تعالى حين أهلكهم، وقرأ نافع وابن عامر «فلا» بالفاء [4]، وهو الأجود؛ لأنه يرجع إلى المعنى الأول؛ أي: فلا يخاف الله عاقبة إهلاكهم، والباقون بالواو، وهي أشبه بالمعنى الثاني؛ أي: ولا يخاف الكافر عاقبة ما صنع، وروى ابن وهب وابن القاسم عن مالك قالا: أخرج إلينا مالك مصحفا لجده، وزعم أنه كتبه في أيام عثمان بن عفان حين كتب المصاحف، وفيه﴿وَلَا يَخَافُ﴾ بالواو. وكذا هي في مصاحف أهل مكة والعراقيين بالواو، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم، اتباعًا لمصحفهم.

---

(١) منقطع: بين الضحاك وابن عباس ـ رضي الله عنهما.

(٢) صحاح إليهم: إلا ابن عباس فالسند منقطع فقد رواه الطبري (٣٠/ ٢٣٣)، عن علي بن أبي طلحة.

(٣) صحيح: وسبق تخريجه.

(٤) قراءة متواترة سبعية: كما في تقريب النشر (ص١٨٩).

سـورة الليل

مكية ، وقيل : مدنية وهي إحدى وعشرون آية بإجماع.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝ ﴾

قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ أي: يُغطى، ولم يذكر معه مفعولا للعلم به، فقيل: يغشى النهار، وقيل: الأرض، وقيل: الخلائق، وقيل: يغشى كل شيء بظلمته، وروى سعيد عن قتادة قال: أول ما خلق اللّه النور والظلمة، ثم ميز بينهما، فجعل الظلمة ليلا أسود مظلما، والنور نهارا مضيئا مبصرا [١]، ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ أي: إذا انكشف ووضح وظهر، وبان بضوئه عن ظلمة الليل، ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ قال الحسن: معناه والذي خلق الذكر والأنثى؛ فيكون قد أقسم بنفسه عز وجل، وقيل: معناه وخلق الذكر والأنثى [٢]؛ فـ «ما»: مصدرية على ما تقدم، وأهل مكة يقولون للرعد: سبحان ما سبحت له ، فـ﴿ما﴾ على هذا بمعنى من، وهو قول أبي عبيدة وغيره، وقد تقدم، وقيل: المعنى وما خلق من الذكر والأنثى؛ فتكون «من» مضمرة، ويكون القسم منه بأهل طاعته، من أنبيائه وأوليائه، ويكون قسمه بهم تكرمة لهم وتشريفا، وقال أبو عبيدة ﴿وَمَا خَلَقَ﴾ أي: من خلق، وكذا قوله: ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا﴾ [الشمس: ٥] ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ [الشمس:٧]، ﴿مَا﴾ في هذه المواضع بمعنى من، وروي عن ابن مسعود أنه كان يقرأ : «والنهار إذا تجلى، والذكر والأنثى» ويسقط ﴿وَمَا خَلَقَ﴾ .

وفي صحيح مسلم عن علقمة قال: قدمنا الشام، فأتانا أبو الدرداء، فقال: فيكم أحد يقرأ عليّ قراءة عبدالله؟ فقلت: نعم، أنا، قال: فكيف سمعت عبدالله يقرأ هذه الآية ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾؟ قال: سمعته يقرأ «والليل إذا يغشى، والذكر والأنثى» قال: وأنا واللّه هكذا سمعت رسول اللّه ﷺ يقرؤها، ولكن هؤلاء يريدون أن أقرأ «وما خلق» [٣] فلا أتابعهم [٤].

قال أبو بكر الأنباري: وحدثنا محمد بن يحيى المروزي قال: حدثنا محمد قال: حدثنا أبو أحمد

---

(١) سبق تخريجه في سورة «البقرة» مرفوعًا ، وموقوفًا ، ومقطوعًا .

(٢) حسن إلى الحسن : رواه ابن أبي حاتم (١٢/ ٤١٩) في تفسيره ، وعزاه السيوطي (٦/ ٦٠٥) في الدر المنثور للطبري .

قلت : وهو عنده (٣٠/ ٢٣٧) في تفسيره .

(٣) هي قراءة شاذة إلا إذا كانت تفسيرية ، وقد ذكرها ابن عطية (١٦/ ٣١٦) في المحرر الوجيز .

(٤) صحيح : مسلم (٨٢٤) في صلاة المسافرين وقصرها .

الزبيري قـال: حدثنا إسرائيل عن أبي إسـحاق عن عبد الرحـمن بن يزيد عن عبد الله قـال: أقرأني رسول الله ﷺ «إني أنا الرازق ذو القوة المتين»(١)؛ قال أبو بكر: كل من هذين الحديثين مردود؛ بخلاف الإجماع له، وأن حمـزة وعاصمًا يرويان عن عبدالـله بن مسعود ما عليه جـماعة المسلمين، والبناء على سندين يوافقان الإجمـاع أولى من الأخذ بواحد يخالفه الإجمـاع والأمة، وما يبنى على رواية واحد إذا حاذاه رواية جـماعـة تخالفـه، أخذ برواية الجـماعة، وأبطل نـقل الواحد؛ لما يجـوز عليه من النسـيان والإغفال، ولو صح الحديث عن أبي الدرداء وكان إسناده مقبولاً معروفًا، ثم كان أبو بكر وعمر وعثمان وعليّ وسائر الصحابة رضي الله عنهم يخالفونه، لكان الحكم العمل بما روته الجماعة، ورفض ما يحكيه الواحد المنفرد، الذي يسرع إليه من النسيان ما لا يسرع إلى الجماعة، وجميع أهل الملة.

وفي المراد بالذكـر والأنثى قولان: أحدهمـا: آدم وحواء؛ قـاله ابن عباس والحـسن والكلبي، الثاني: يعني جميع الذكور والإناث من بني آدم والبهائم؛ لأن الله تعالى خلق جميعهم من ذكر وأنثى من نوعهم، وقـيل: كل ذكر وأنثى من الآدميين دون البهـائم لاختصاصهم بولاية الـلّه وطاعته، ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ هذا جـواب القسم، والمعنى: إن عـملكم لمختلف، وقـال عكرمة وسـائر المفسـرين: السعي: العمل؛ فساع في فكاك نفسه، وساع في عطبها؛ يدل عليه قوله عليه الصلاة السلام: «الناس غاديان: فبائع نفسه فمـعتقها، أو موبقها»(٢)، وشتى: واحده شتـيت؛ مثل مَرِيض ومَرْضى، وإنما قيل للمختلف شتى لتباعد ما بين بعضه وبعضه، أي: إن عملكم لمتباعد بعضه من بعض؛ لأن بعضه ضلالة وبعـضه هدى، أي: فمنكم مؤمن وبر، وكـافر وفاجر، ومطيع وعـاص، وقيل﴿لَشَتَّىٰ﴾ أي: لمختلف الجزاء؛ فمـنكم مثاب بالجنة، ومنكم معاقب بالنار، وقيل: أي: لمخـتلف الأخلاق؛ فمنكم راحم وقاس، وحليم وطائش، وجواد وبخيل؛ وشبه ذلك.

﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝ ﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ﴾ قال ابن مسعـود: يعني أبا بكر رضي الله عنه؛ وقاله عامة المفـسرين، فروى عن عامر بن عبـد الله بن الزبير قال: كان أبو بكر يعتق على الإسـلام عجائز ونساء، قال: فقال له أبوه أبو قحافة: أي: بني لو أنكَ أعـتقت رجالا جلدا يمنعونك ويقومون معك؟ فـقال: يا أبت إنما أريد مـا يريد(٣)، وعن ابن عـباس في قوله تـعالى﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ﴾ أي: بذل، ﴿وَاتَّقَىٰ﴾ أي: محـارم الله التي نهى عنها(٤)، ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ أي: بالخلف من الله تعالى على

(١) ضعيف: وانظر إعلال المصنف له.

(٢) صحيح بغير هذا اللفظ: قطعة من حديث مسلم (١) في الطهارة، عن أبي مالك الأشعرى وفيه «كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها».

(٣) صحيح: الحاكم (٢/ ٥٢٥) في المستدرك وصححه، والطبري (٣٠/ ٢٤١) في تفسيره.

(٤) صحيح: الطبري (٣٠/ ٢٣٨) في تفسيره.

عطائه، ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول اللّه ﷺ: « ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان ينزلان فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقا خلفًا، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكا تلفا » (١)، وروي من حديث أبي الدرداء: أن رسول اللّه ﷺ قال: « ما من يوم غربت شمسه إلا بعث بجنبتيها ملكان يناديان يسمعهما خلق اللّه كلهم إلا الثقلين: اللهم أعط منفقًا خلفًا، وأعط ممسكًا تلفًا » (٢) فأنزل اللّه تعالى في ذلك في القرآن ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ﴾ . . الآيات، وقال أهل التفسير ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ﴾ المعسرين، وقال قتادة: أعطى حق اللّه تعالى الذي عليه (٣)، وقال الحسن: أعطى الصدق من قلبه (٤)، ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ أي: بلا إله إلا اللّه؛ قاله الضحاك والسلمي وابن عباس أيضا (٥)، وقال مجاهد: بالجنة؛ دليله قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ . . . [يونس: ٢٦] الآية، وقال قتادة: بموعود اللّه الذي وعده أن يثيبه (٦)، زيد بن أسلم: بالصلاة والزكاة والصوم، الحسن: بالخلف من عطائه (٧)؛ وهو اختيار الطبري، وتقدم عن ابن عباس، وكله متقارب المعنى؛ إذ كله يرجع إلى الثواب الذي هو الجنة.

الثانية: قوله تعالى ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ أي: نرشده لأسباب الخير والصلاح، حتى يسهل عليه فعلها، وقال زيد بن أسلم ﴿لِلْيُسْرَىٰ﴾ للجنة، وفي الصحيحين والترمذي عن علي رضي اللّه عنه قال: كنا في جنازة بالبقيع، فأتى النبي ﷺ، فجلس وجلسنا معه، ومعه عود ينكت به في الأرض، فرفع رأسه إلى السماء فقال: « ما من نفس منفوسة إلا قد كتب مدخلها» فقال القوم: يا رسول اللّه، أفلا نتكل على كتابنا؟ فمن كان من أهل السعادة فإنه يعمل للسعادة، ومن كان من أهل الشقاء فإنه يعمل للشقاء، قال: « بل اعملوا فكل ميسر؛ أما من كان من أهل السعادة فإنه ييسر لعمل السعادة، وأما من كان من أهل الشقاء فإنه ييسر لعمل الشقاء» ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾» (٨) لفظ الترمذي، وقال فيه: حديث حسن صحيح، وسأل غلامان شابان رسول اللّه ﷺ فقالا: العمل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير؟ أم في شيء يستأنف؟ فقال عليه السلام الصلاة: « بل فيما جفت به الأقلام، وجرت به المقادير» قالا: ففيم العمل؟ قال: « اعملوا، فكل ميسر لعمله الذي خلق له» قالا: فالآن نجد ونعمل (٩).

---

(١) صحيح: مسلم (١٠١٠/ ٥٧) في الزكاة، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه .

(٢) صحيح: ابن حبان (٨/ ١٢١) في صحيحه، ورواه أحمد ورجاله رجال الصحيح كما في المجمع (٣/ ١٢٢) للهيثمي .

(٣، ٤) انظر: تفسير البغوي (٨/ ٤٤٦) .

(٥) ذكرها الطبري (٣٠/ ٢٣٩، ٢٤٠) في تفسيره، وسنده إلى ابن عباس ضعيف جدًا لكونه من طريق العوفيين .

(٦، ٧) صحيحان: الطبري (٣٠/ ٢٣٩، ٢٤٠) في تفسيره.

(٨) متفق عليه: البخاري (٤٩٤٥) في التفسير، ومسلم (٢٦٤٧/ ٦، ٧) في القدر، واللفظ للترمذي (٣٣٤٤) في التفسير .

(٩) مرسل: الطبري (٣٠/ ٢٤٣) في تفسيره .

الثالثة : قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ﴾ أي: ضن بما عنده، فلم يبذل خيرا، وقد تقدم بيانه وثمرته في الدنيا في سورة «آل عمران» (١) ، وفي الآخرة مآله النار، كما في هذه الآية، روى الضحاك عن ابن عباس ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ قال: سوف أحول بينه وبين الإيمان بالله وبرسوله ، وعنه عن ابن عباس قال: نزلت في أمية بن خلف (٣) وروى عكرمة عن ابن عباس ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ﴾ يقول: بخل بماله، واستغنى ربه (٤) ، ﴿وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ أي: بالخلف، وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد ﴿وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ قال: بالجنة (٥) ، وبإسناد عنه آخر قال ﴿بِالْحُسْنَىٰ﴾ أي: بلا إله إلا الله، ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ﴾ أي: نسهل طريقه. ﴿لِلْعُسْرَىٰ﴾ أي: للشر، وعن ابن مسعود: للنار، وقيل: أي: فسنعسر عليه أسباب الخير والصلاح حتى يصعب عليه فعلها، وقد تقدم أن الملك ينادي صباحا ومساء: «اللهم أعط منفقا خلفا، وأعط ممسكا تلفا»، رواه أبو الدرداء (٦).

مسألة: قال العلماء: ثبت بهذه الآية وبقوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣] ، وقوله: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ [البقرة: ٢٧٤] إلى غير ذلك من الآيات : أن الجود من مكارم الأخلاق، والبخل من أرذلها، وليس الجواد الذي يعطي في غير موضع العطاء، ولا البخيل الذي يمنع في موضع المنع، لكن الجواد الذي يعطي في موضع العطاء، والبخيل الذي يمنع في موضع العطاء، فكل من استفاد بما يعطي أجرًا وحمدًا فهو الجواد، وكل من استحق بالمنع ذمًا أو عقابا فهو البخيل، ومن لم يستفد بالعطاء أجرًا ولا حمدًا، وإنما استوجب به ذما فليس بجواد، وإنما هو مسرف مذموم، وهو من المبذرين الذين جعلهم الله إخوان الشياطين، وأوجب الحجر عليهم، ومن لم يستوجب بالمنع عقابًا ولا ذمًا، واستوجب به حمدا، فهو من أهل الرشد، الذين يستحقون القيام على أموال غيرهم، بحسن تدبيرهم وسداد رأيهم.

الرابعة : قال الفراء: يقول القائل: كيف قال: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾؟ وهل في العسرى تيسير؟ فيقال في الجواب: هذا في إجازته بمنزلة قوله عز وجل: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١]، والبشارة في الأصل على المفرح والسار، فإذا جمع في كلامين هذا خير وهذا شر، جاءت البشارة فيهما، وكذلك التيسير في الأصل على المفرح، فإذا جمع في كلامين هذا خير وهذا شر، جاء التيسير فيهما جميعا، قال الفراء: وقوله تعالى: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ﴾ : سنهيئه، والعرب تقول: قد يسرت الغنم: إذا ولدت أو تهيأت للولادة، قال:

هُما سَيِّدانا يَزْعُمان وإنما ... يَسُوداننا أن يسرت غَنَمَاهُمَا

---

(١) عند الآية (١٨٠) .

(٢، ٣) منقطع الإسناد : الضحاك لم يدرك ابن عباس ـ رضي الله عنهما وانظر الطبري (٣٠/ ٢٤٢) .

(٤) صحيح : وقد سبق .

(٥) صحيح : الطبري (٣٠/ ٢٤٢) في تفسيره ، والبغوي (٨/ ٤٤٢) في تفسيره.

(٦) صحيح : سبق تخريجه .

﴿ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ ﴾

قوله تعالى ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ﴾ أي: مات، يقال: ردي الرجل يردي ردي: إذا هلك، قال:

صَرَفت الهَوى عنهن مِنْ خَشيةِ الرَّدَى

وقال أبو صالح وزيد بن أسلم: ﴿إِذَا تَرَدَّىٰ﴾ أي: سقط في جهنم [(١)]؛ ومنه المتردية، ويقال: ردي في البئر وتردى: إذا سقط في بئر، أو تهور من جبل، يقال: ما أدري أين ردي؟ أي: أين ذهب، و﴿مَا﴾: يحتمل أن تكون جحدا؛ أي: ولا يغني عنه ماله شيئا؛ ويحتمل أن تكون استفهاما معناه التوبيخ؛ أيْ أيّ شيء يغني عنه إذا هلك ووقع في جهنم! ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ أي: إن علينا أن نبين طريق الهدى من طريق الضلالة، فالهدى: بمعنى بيان الأحكام، قاله الزجاج، أي: على الله البيان، بيان حلاله وحرامه، وطاعته ومعصيته؛ قاله قتادة، وقال الفراء: من سلك الهدى فعلى الله سبيله؛ لقوله ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ [النحل: ٩] يقول: من أراد الله فهو على السبيل القاصد، وقيل: معناه إن علينا للهدى والإضلال، فترك الإضلال؛ كقوله: ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾ [آل عمران: ٢٦] و﴿بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [يس: ٨٣]، وكما قال ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١] وهي تقي البرد؛ عن الفراء أيضا، وقيل: أي: إن علينا ثواب هداه الذي هديناه، ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ﴾ ﴿لَلْآخِرَةَ﴾: الجنة، ﴿وَالْأُولَىٰ﴾: الدنيا، وكذا روى عطاء عن ابن عباس، أي: الدنيا والآخرة لله تعالى، وروى أبو صالح عن ابن عباس قال: ثواب الدنيا والآخرة [(٢)]، وهو كقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [النساء: ١٣٤] فمن طلبهما من غير مالكهما فقد أخطأ الطريق.

﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ ﴾

قوله تعالى ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ﴾ أي: حذرتكم وخوفتكم، ﴿نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ أي: تلهب وتتوقد وأصله تتلظى، وهي قراءة عبيد بن عمير، ويحيى بن يعمر، وطلحة بن مصرف، ﴿لَا يَصْلَاهَا﴾ أي: لا يجد صلاها وهو حرها، ﴿إِلَّا الْأَشْقَى﴾ أي: الشقي، ﴿الَّذِي كَذَّبَ﴾ نبي الله محمدا ﷺ، ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ أي: أعرض عن الإيمان، وروى مكحول عن أبي هريرة قال: كُلٌّ يدخل الجنة إلا من أباها، قال: يا أبا هريرة، ومن يأبى أن يدخل الجنة؟ قال: الذي كذب وتولى، وقال مالك: صلى بنا عمر بن عبدالعزيز المغرب، فقرأ ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ فلما بلغ ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ وقع عليه البكاء، فلم يقدر يتعداها من البكاء، فتركها وقرأ سورة أخرى، وقال الفراء: ﴿إِلَّا الْأَشْقَى﴾ إلا من كان شقيا في علم الله جل ثناؤه، وروى الضحاك عن ابن عباس قال ﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى﴾ أمية بن خلف ونظراؤه الذين كذبوا محمدا ﷺ [(٣)]، وقال قتادة: كذب بكتاب الله، وتولى عن طاعة الله [(٤)]، وقال الفراء: لم يكن

---

(١) ذكره الطبري (٣٠/ ٢٤٥) في تفسيره.

(٢) واهٍ: أبو صالح يكذب على ابن عباس ـ رضي الله عنهما انظر الطبري (٣٠/ ٢٤٦).

(٣) منقطع: بين الضحاك وابن عباس ـ رضي الله عنهما انظر الطبري (٣٠/ ٢٤٦).

(٤) صحيح إليه: الطبري (٣٠/ ٢٤٦) في تفسيره.

كذب برد ظاهر، ولكنه قـصر عما أمـر به من الطاعة؛ فجعل تكذيبـا، كما تقول: لقي فـلان العدو فكذب: إذا نكل ورجع عن اتباعه، قال: وسمعت أبا ثروان يقول: إن بني نمير ليس لجدهم مكذوبة، يقول: إذا لقوا صدقوا القتـال، ولم يرجعوا، وكذلك قوله جل ثناؤه ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ [الواقعة: ٢] يقول: هي حق، وسمـعت سلم بن الحسن يقول: سمعت أبا إسحـاق الزجاج يقول: هذه الآية التي من أجلها قال أهل الإرجاء بالإرجاء، فزعـموا أنه لا يدخل النار إلا كافر؛ لقوله جل ثناؤه ﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ وليس الأمر كما ظنوا، هذه نار موصـوفة بعينها، لا يصلى هذه النار إلا الذي كـذب وتولى، ولأهل النار منازل؛ فـمنهـا أن المنافـقين في الدرك الأسـفل من النار؛ والله سبحانه كـل ما وعد عليه بجنس من العذاب فجـائز أن يعذب به، وقال جل ثناؤه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨] فلو كان كل من لم يشـرك لم يعذب، لم يكن في قوله ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ فائدة، وكان ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ كلاما لا معنى له.

الزمـخشـري [1]: الآية واردة في الموازنة بين حـالتي عظيم من المشـركين وعظيم من المؤمنين، فأريد أن يبالغ في صفتـيهما المتناقضتين فقيل: الأشقى، وجعل مـختصا بالصلى، كأن النار لم تخلق إلا له وقيل: الأتقى، وجعل مختصا بالجنة، كأن الجنة لم تخلق إلا له، وقيل: هما أبو جهل أو أمية ابن خلف، وأبو بكر رضي الله عنه.

﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾﴾

قوله تعالى ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا﴾ أي: يكون بعيدا منها، ﴿الْأَتْقَى﴾ أي: التقيُّ الخائف، قال ابن عباس: هو أبو بكر رضي الله عنه، يزحزح عن دخول النار، ثم وصف الأتقى فقال: ﴿الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ﴾ أي: يطلب أن يكون عند الله زاكيا، ولا يطلب بذلك رياء ولا سـمعة، بل يتصدق به مبتـغيا به وجه الله تعالى، وقال بعـض أهل المعاني: أراد بقوله ﴿الْأَتْقَى﴾ و﴿الْأَشْقَى﴾ أي: التقي والشـقي؛ كقول طرفة:

تمنى رجالٌ أن أموت وإن أمت ... فتلك سبيلٌ لستُ فيها بأوحد

أي: واحد ووحيد؛ وتوضع أفعل موضع فعيل، نحـو قولهم: الله أكبر بمعنى كبير، ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧] بمعنى: هين.

﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾

قوله تعالى ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ﴾ أي: ليس يتصدق ليجازي على نعمة، وإنما يبتغي وجه ربه الأعلى، أي: المتعالي ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ أي: بالجزاء، فروى عطاء والضحاك عن ابن عباس قال: عذب المشـركون بلالا، وبلال يـقول أحد أحـد؛ فمـر به النبي ﷺ فقـال: «أحد يعني الله تـعالى ينجيك» ثم قال لأبي بكر: «يا أبا بكر إن بلالا يعـذب في الله» فعرف أبو بكر الذي يريد رسول الله ﷺ فانصرف إلـى منزله، فأخذ رطلا من ذهب، ومضى به إلى أمـية بن خلف، فقال له: أتبـيعني

(١) الكشاف (٤/ ٢١٨) للزمخشري.

بلالا؟ قال: نعم؛ فاشتراه فـأعتقه، فقال المشركون: ما أعتـقه أبو بكر إلا ليد كانت له عنده؛ فنزلت ﴿وَمَا لأَحَدٍ عِندَهُ﴾ أي: عند أبي بكر ﴿مِن نِّعْمَةٍ﴾، أي: من يد ومنة، ﴿تُجْزَىٰ﴾ بل ﴿ابْتِغَاءَ﴾ بما فعل ﴿وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَىٰ﴾، وقيل: اشترى أبو بـكر من أمية وأبي بن خلف بلالا، ببردة وعشر أواق، فـأعتقه لله، فنزلت ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ (١) [الليل: ٤] وقال سعـيد بن المسيب: بلغني أن أميـة بن خلف قال لأبي بكر حين قال له أبو بكر: أتبيعنيه؟ فقـال: نعم، أبيعه بنسطاس، وكان نسطاس عبدًا لأبي بكر، صاحب عشرة آلاف دينار وغلمان وجوار ومواش، وكان مشركًا، فحمله أبو بكر على الإسلام، على أن يكون له ماله، فأبىّ، فباعه أبو بكر به، فقال المشركون: ما فعل أبو بكر ببلال هذا إلا ليد كانت لبلال عنده؛ فنزلت ﴿وَمَا لأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلاَّ ابْتِغَاءَ﴾ (٢) أي: لكن ابتغاء؛ فـهو استثناء منقطع؛ فلذلك نصبت، كقـولك: ما في الدار أحد إلا حمارا، ويجـوز الرفع، وقرأ يحيى بن وثاب «إلا ابتغاءُ وجـهِ ربِّه» بالرفع، على لغة من يقول: يجـوز الرفع في المستثنى، وأنشد في اللـغتين قول بشر بن أبي خازم:

أضْحَت خَلاءً قِفارا لا أنيسَ بها إلا الجآذَر والظلمانِ تختلفُ

وقول القائل:

وبلدةٌ ليس بها أنيسُ إلا اليعافيرُ وإلا العيسُ

وفي التنزيل ﴿مَّا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ [النساء: ٦٦] وقد تقدم، ﴿وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَىٰ﴾ أي: مرضاته وما يقرب منه، و﴿الأَعْلَىٰ﴾ من نعت الرب الذي استحق صفات العلو، ويجوز أن يكون ﴿ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ﴾ مـفعـولا له على المعنى؛ لأن معنى الكـلام: لا يؤتي ماله إلا ابتـغاء وجـه ربه، لا لمكافأة نعـمتـه، ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ أي: سوف يعطيه في الجنة ما يرضي؛ وذلك أنه يعطيـه أضعاف ما أنفق، وروى أبو حيان التيمي عن أبيه عن علي رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: « رحم الله أبا بكر زوجني ابنته، وحـملني إلى دار الهجرة، وأعـتق بلالا من ماله» (٣)، ولما اشتـراه أبو بكر قال له بلال: هل اشتريتني لعملك أو لعمل الله؟ قال: بل لعمل الله قال: فـذرني وعمل الله، فأعتقه، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقـول: أبو بكر سيـدنا وأعتق سـيدنا يعني بلالا رضي الله عنه، وقـاله عطاء وروى عن ابن عباس: إن السـورة نزلت في أبي الدحداح؛ في النخلة التي اشتراها بحائط له، فـيما ذكر الثعلبي عن عطاء، وقـال القشيري عن ابن عبـاس: بأربعين نخلة؛ ولم يسم الرجل، قال عطاء: كان لرجل من الأنصار نخلة، يسقط من بلحها في دار جار له، فيتناول صبيانه، فشكا ذلك إلى النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: « تبيعها بنخلة في الجنة»؟ فأبى؛ فخرج فلقيه أبو الدحداح فقال: هل لك أن تبيعنيهـا بـ«حسنى»: حائط له، فقال: هي لك، فأتى أبو الدحـداح إلى النبي ﷺ، وقال: يا رسول الله، اشتراها مني بـنخلة في الجنة، قال: « نعم، والذي نفسي بيده» فـقال: هي لك يا رسول الله؛

---

(١) هذا سند رواه الواحدى (ص٣٩٢) في أسباب النزول ، والأصح حديث ابن الزبير ، وقد سبق .

(٢) ضعيف لكونه بلاغًا : البغوي (٨/ ٤٤٩) في تفسيره .

(٣) ضعيف جدًا : الترمذي (٣٧١٤) في المناقب وضعفه الألباني هناك ـ ط ـ الرياض .

فدعا النبي ﷺ جار الأنصـاري، فقال: «خذها» فنزلت ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ [الليل: ١] إلى آخر السورة في بستان أبي الدحـداح وصاحب النخلة [١]، ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ﴾ يعني: أبا الدحداح، ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ أي: بالثواب، ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ يعني: الجنة، ﴿وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ﴾ يعني: الأنصاري، ﴿وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ أي: بالثواب، ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾، يعني: جهنم، ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ﴾ أي: مات، إلى قوله ﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى﴾ يعني: بذلك الخزرجي؛ وكان منافقـا، فمات على نفاقه، ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى﴾ يعني: أبا الدحداح، ﴿الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ﴾ في ثمن تلك النخلة، ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ﴾ يكافئه عليها؛ يعني أبا الدحداح، ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ إذا أدخله اللّه الجنة، والأكثر أن السورة نزلت في أبي بكر رضي اللّه عنه، وروي ذلك عن ابن مسعود وابـن عباس وعبدالله بن الزبير وغيرهم، وقد ذكرنا خبرا آخر لأبي الدحداح في سورة البقرة، عند قول: ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥]، واللّه تعالى أعلم.

(١) ضعـيف جدًا: ضـعفـه السيوطي (ص٤٥٦) في لـباب النقول، ورواه ابن أبـي حاتم (١٢/ ٤٢٠، ٤٢١) في تفسيره، وقال ابن كثير (٨/ ٣٢٧) في تفسيره: «غريب جدًا».

obeikandl.com

سـورة الضحى

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝ ﴾

قوله تعالى: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ قد تقدم القول في ﴿الضُّحَىٰ﴾، والمراد به النهار؛ لقوله: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ فقابله بالليل، وفي سورة الأعراف ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ۝٩٧ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾[الأعراف: ٩٧] أي: نهارا، وقال قتادة ومقاتل وجعفر الصادق: أقسم بالضحى الذي كلم الله فيه موسى، وبليلة المعراج، وقيل: هي الساعة التي خر فيها السحرة سجدا، بيانه قوله تعالى: ﴿وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾[طه: ٥٩]، وقال أهل المعاني فيه وفي أمثاله: فيه إضمار، مجازه ورب الضحى، و﴿سَجَا﴾ معناه: سكن؛ قال قتادة ومجاهد وابن زيد وعكرمة[١]، يقال: ليلة ساجية أي: ساكنة، ويقال للعين إذا سكن طرفها: ساجية، يقال: سجا الليل يسجو سجوا: إذا سكن، والبحر إذا سجا: سكن.

قال الأعشى:

فما ذنبنا أن جاش بحرُ ابن عَمكم ... وبَحرُك ساجٍ ما يواري الدعامصا

وقال الراجز:

يَا حَبَذا القَمراء والليل الساجِ ... وطرق مِثْلَ ملاءِ النساج

وقال جرير:

ولقد رمينك يومَ رحنِ بأعينٍ ... يَنْظُرن مِنْ خَلَلِ الستورِ سَواجي

وقال الضحاك: ﴿سَجَا﴾ غطى كل شيء، قال الأصمعي: سجو الليل: تغطيته النهار؛ مثلما يسجى الرجل بالثوب، وقال الحسن: غشى بظلامه؛ وقاله ابن عباس، وعنه: إذا ذهب[٢]، وعنه أيضا: إذا أظلم، وقال سعيد بن جبير: أقبل؛ وروي عن قتادة أيضا[٣]، وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد ﴿سَجَا﴾ استوى[٤]، والقول الأول أشهر في اللغة﴿سجا﴾ سكن؛ أي: سكن الناس فيه، كما يقال: نهار صائم، وليل قائم، وقيل: سكونه استقرار ظلامه واستواؤه، ويقال: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَا﴾: يعني عباده الذين يعبدونه في وقت الضحى، وعباده الذين يعبدونه بالليل إذا أظلم، ويقال: ﴿الضُّحَىٰ﴾: يعني نور الجنة إذا تنور، ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَا﴾: يعني ظلمة الليل إذا أظلم، ويقال:

---

(١) هكذا عند الطبري (٣٠/ ٢٥٠) في تفسيره .

(٢) منقطع : بين علي بن أبي طلحة وابن عباس : الطبري في تفسيره (٣٠/ ٢٤٩) .

(٣) صحيح إلى قتادة : الطبري في تفسيره (٣٠/ ٢٤٩) .

(٤) صحيح إلى مجاهد : السابق (٣٠/ ٢٥٠) وإن كان في إسناد الطبري (ابن حميد) لكنه روى عند ابن أبي حاتم (١٢/ ٤٢٢) من طريق أخرى غيره .

ويقال: ﴿الضُّحَىٰ﴾: يعني نور الجنة إذا تنور، ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَا﴾: يعني ظلمة الليل إذا أظلم، ويقال: ﴿وَالضُّحَىٰ﴾: يعني النور الذي في قلوب العارفين كهيئة النهار، ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَا﴾: يعني السواد الذي في قلوب الكافرين كهيئة الليل؛ فأقسم الله عز وجل بهذه الأشياء.

قوله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾ هذا جواب القسم، وكان جبريل عليه السلام أبطأ على النبي ﷺ، فقال المشركون: قلاه الله وودعه؛ فنزلت الآية، وقال ابن جريج: احتبس عنه الوحي اثني عشر يوما، وقال ابن عباس: خمسة عشر يومًا، وقيل: خمسة وعشرين يوما، وقال مقاتل: أربعين يوما، فقال المشركون: إن محمدا ودعه ربه وقلاه، ولو كان أمره من الله لتابع عليه، كما كان يفعل بمن كان قبله من الأنبياء، وفي البخاري عن جندب بن سفيان قال: اشتكى رسول الله ﷺ، فلم يقم ليلتين أو ثلاثا؛ فجاءت امرأة فقالت: يا محمد، إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك، لم أره قربك منذ ليلتين أو ثلاث؛ فأنزل الله عز وجل ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ (١).

وفي الترمذي عن جندب البجلي قال: كنت مع النبي ﷺ في غار فدميت إصبعه، فقال النبي ﷺ: «هل أنت إلا إصبع دميت، وفي سبيل الله ما لقيت» قال: وأبطأ عليه جبريل فقال المشركون: قد ودع محمد؛ فأنزل الله تبارك وتعالى ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾، هذا حديث حسن صحيح (٢)، لم يذكر الترمذي «فلم يقم ليلتين أو ثلاثا» أسقطه الترمذي، وذكره البخاري، وهو أصح ما قيل في ذلك، والله أعلم، وقد ذكره الثعلبي أيضًا عن جندب بن سفيان البجلي، قال: رُمي النبي ﷺ في إصبعه بحجر، فدميت، فقال: «هل أنت إلا إصبع دميت، وفي سبيل الله ما لقيت» فمكث ليلتين أو ثلاثًا لا يقوم الليل، فقالت له أم جميل امرأة أبي لهب: ما أرى شيطانك إلا قد تركك، لم أره قربك منذ ليلتين أو ثلاث؛ فنزلت ﴿وَالضُّحَىٰ﴾ (٣)، وروى عن أبي عمران الجوني، قال: أبطأ جبريل على النبي ﷺ حتى شق عليه؛ فجاءه وهو واضع جبهته على الكعبة يدعو؛ فنكت بين كتفيه، وأنزل عليه ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾، وقالت خولة وكانت تخدم النبي ﷺ: إن جروا دخل البيت، فدخل تحت السرير فمات، فمكث نبي الله ﷺ أيامًا لا ينزل عليه الوحي، فقال: «يا خولة، ما حدث في بيتي؟ لجبريل لا يأتيني» قالت خولة فقلت: لو هيأت البيت وكنسته؛ فأهويت بالمكنسة تحت السرير، فإذا جرو ميت، فأخذته فألقيته خلف الجدار؛ فجاء نبي الله ترعد لحياه - وكان إذا نزل عليه الوحي استقبلته الرعدة - فقال: «يا خولة دثريني» فأنزل الله هذه السورة (٤)، ولما نزل جبريل سأله النبي ﷺ عن التأخر فقال: «أما علمت أنا لا ندخل بيتا فيه كلب ولا صورة»، وقيل: لما سألته اليهود عن الروح وذي القرنين وأصحاب الكهف قال: «سأخبركم غدا»، ولم يقل إن شاء الله، فاحتبس عنه الوحي، إلى أن نزل جبريل عليه بقوله: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝٢٣ إِلَّا أَن يَشَاءَ

(١) صحيح: البخاري (٤٩٥٠) في التفسير.

(٢) حسن صحيح: وهذه الزيادة عند الترمذي (٣٣٤٥) في التفسير، وصححه الألباني - رحمه الله.

(٣) سبحان الله!! الرواية صحيحة لكن أبى الثعلبي إلا أن يضيف عليها ويدرج فيها ما ليس فيها!!

(٤) ضعيف: الهيثمي (٧/ ١٣٨) في المجمع وعزاه للطبراني وجهّل (أم حفص) - راوية الحديث عن أمها خولة - وقال السيوطي (ص٤٥٨) في لباب النقول فيه من لا يعرف.

اللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣] فأخبره بما سئل عنه، وفي هذه القصة نزلت ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾، وقيل: إن المسلمين قالوا: يا رسول الله، مالك لا ينزل عليك الوحي؟ فقال: « وكيف ينزل عليّ وأنتم لا تنقون رواجبكم - وفي رواية براجمكم - ولا تقصون أظفاركم ولا تأخذون من شواربكم» (١)، فنزل جبريل بهذه السورة؛ فقال النبي ﷺ: « ما جئت حتى اشتقت إليك» فقال جبريل: « أنا كنت أشد إليك شوقًا، ولكني عبد مأمور» ثم أنزل عليه ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ (٢) [مريم: ٦٤]، ﴿وَدَّعَكَ﴾ بالتشديد: قراءة العامة، من التوديع، وذلك كتوديع المفارق، وروي عن ابن عباس وابن الزبير أنهما قرآه «وَدَعَكَ» بالتخفيف، ومعناه: تركك، قال:

وثم ودعنا آل عمرو وعامر فرائس أطراف المثقفة السمر (٣)

واستعماله قليل، يقال: هو يدع كذا، أي: يتركه، قال المبرد محمد بن يزيد: لا يكادون يقولون ودع ولا وذر، لضعف الواو إذا قدمت، واستغنوا عنها بترك.

قوله تعالى﴿وَمَا قَلَىٰ﴾ أي: ما أبغضك ربك منذ أحبك، وترك الكاف، لأنه رأس آية، والقلى: البغض؛ فإن فتحت القاف مددت؛ تقول: قلاه يقليه قلى وقلاء، كما تقول: قريت الضعيف أقريه قرى وقراء، ويقلاه: لغة طيئ، وأنشد ثعلب:

أيام أمّ الغمرِ لا نَقْلاها

أي لا نبغضها، ونقلي أي: نبغض، وقال:

أسيئي بنا أو أحْسني لاَ مَلومةٌ لَدينا وَلاَ مَقلية إن تقلتِ

وقال امرؤ القيس:

ولستُ بمقلي الخلالِ ولا قَال

وتأويل الآية: ما ودعك ربك وما قلاك، فترك الكاف لأنه رأس آية؛ كما قال عز وجل ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥] أي: والذاكرات الله.

﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝﴾

روى سلمة عن ابن إسحاق قال﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ أي: ما عندي في مرجعك إلي يا محمد، خير لك مما عجلت لك من الكرامة في الدنيا، وقال ابن عباس: أري النبي ﷺ ما يفتح الله على أمته بعده؛ فسر بذلك؛ فنزل جبريل بقوله: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ (٤)، قال ابن إسحاق: الفلج في الدنيا، والثواب في الآخرة، وقيل: الحوض والشفاعة،

---

(١) ضعيف: وقد سبق.

(٢) صحيح بغير هذا اللفظ: وقد أخرجناه عند الآية (٦٤) من سورة «مريم».

(٣) المثقفة: ما قُوِّمت بالثقاف وهي آلة تقويم الرماح. اللسان «ثقف».

(٤) ضعيف جدًا: الحاكم (٢/ ٥٢٦) في المستدرك وصححه، ولكن تعقبه الذهبي، وأعله بـ عصام بن روّاد وهو ضعيف هو وأبوه وقصة الألف قصر هذه ضعيفة أيضًا رواها الطبري (٣٠/ ٢٥٢) في تفسيره بسند فيه عمرو بن هاشم، وفيه مقال كما في التهذيب (٨/ ١١٢).

وعن ابن عباس: ألف قصر من لؤلؤ أبيض ترابه المسك، رفعه الأوزاعي، قال: حدثني إسماعيل بن عبيد الله، عن علي بن عبد الله بن عباس، عن أبيه قال: أري النبي ﷺ ما هو مفتوح على أمته، فسر بذلك؛ فأنزل الله عز وجل ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾، فأعطاه الله جل ثناؤه ألف قصر في الجنة، ترابها المسك؛ في كل قصر ما ينبغي له من الأزواج والخدم، وعنه قال: رضي محمد ألا يدخل أحد من أهل بيته النار [١]، وقاله السدي، وقيل: هي الشفاعة في جميع المؤمنين، وعن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يشفعني الله في أمتي حتى يقول الله سبحانه لي: رضيت يا محمد؟ فأقول يا رب رضيت» [٢]، وفي «صحيح» مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبي ﷺ تلا قول الله تعالى في إبراهيم ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦] وقول عيسى ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ [المائدة: ١١٨]، فرفع يديه وقال: «اللهم أمتي أمتي» وبكى، فقال الله تعالى لجبريل: «اذهب إلى محمد، وربك أعلم، فسله ما يبكيك» فأتى جبريل النبي ﷺ فسأل فأخبره، فقال الله تعالى لجبريل: «اذهب إلى محمد، فقل له: إن الله يقول لك: إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوؤك» [٣]، وقال علي رضي الله عنه لأهل العراق: إنكم تقولون إن أرجى آية في كتاب الله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٣] قالوا: إنا نقول ذلك، قال: ولكنا أهل البيت نقول: إن أرجى آية في كتاب الله قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ [٤]، وفي الحديث: لما نزلت هذه الآية قال النبي ﷺ: «إذًا والله لا أرضى وواحد من أمتي في النار» [٥].

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦﴾

عدد سبحانه منه على نبيه محمد ﷺ فقال: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا﴾ لا أب لك قد مات أبوك، ﴿فَآوَىٰ﴾ أي: جعل لك مأوى تأوي إليه عند عمك أبي طالب، فكفلك، وقيل لجعفر بن محمد الصادق: لم أوتم النبي ﷺ من أبويه؟ فقال: لئلا يكون لمخلوق عليه حق، وعن مجاهد: هو من قول العرب: درة يتيمة؛ إذا لم يكن لها مثل، فمجاز الآية: ألم يجدك واحدًا في شرفك لا نظير لك، فآواك الله بأصحاب يحفظونك ويحوطونك.

﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧﴾

أي: غافلا عما يراد بك من أمر النبوة، فهداك: أي: أرشدك، والضلال هنا بمعنى الغفلة؛

---

(١) ضعيف جدًا: السابق نفسه.
(٢) ضعيف: أبو نعيم (٣/ ١٧٩) في حلية الأولياء.
(٣) صحيح: مسلم (٢٠٢) في الإيمان.
(٤) ضعيف: أبو نعيم (٣/ ١٧٩) في حلية الأولياء.
(٥) ضعيف: الدر المنثور (٦/ ٦١٠) للسيوطي وعزاه للخطيب موقوفًا من رواية ابن عباس في تلخيص المتشابه.

كقوله جل ثناؤه ﴿لاَّ يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢] أي: لا يغفل، وقال في حق نبيه ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [يوسف: ٣] ، وقال قوم ﴿ضَالاًّ﴾ لم تكن تدري القرآن والشرائع، فهداك الله إلى القرآن، وشرائع الإسلام؛ عن الضحاك وشهر بن حوشب وغيرهما، وهو معنى قوله تعالى ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ﴾ [الشورى:٥٢]، على ما بينا في سورة «الشورى» ، وقال قوم ﴿وَوَجَدَكَ ضَالاًّ﴾ أي: في قوم ضلال، فهداهم الله بك، هذا قول الكلبي والفراء، وعن السدي نحوه؛ أي: ووجد قومك في ضلال، فهداك إلى إرشادهم، وقيل ﴿وَوَجَدَكَ ضَالاًّ﴾ عن الهجرة، فهداك إليها، وقيل ﴿ضَالاًّ﴾ أي: ناسيا شأن الاستثناء حين سئلت عن أصحاب الكهف وذي القرنين والروح ، فأذكرك؛ كما قال تعالى: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وقيل: ووجدك طالبا للقبلة فهداك إليها؛ بيانه ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ [البقرة: ١٤٤] الآية، ويكون الضلال بمعنى الطلب؛ لأن الضال طالب، وقيل: ووجدك متحيراً عن بيان ما نزل عليك، فهداك إليه؛ ويكون الضلال بمعنى التحير؛ لأن الضال متحير، وقيل: ووجدك ضائعا في قومك؛ فهداك إليه؛ ويكون الضلال بمعنى الضياع، وقيل: ووجدك محبا للهداية، فهداك إليها؛ ويكون الضلال بمعنى المحبة، ومنه قوله تعالى: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ﴾ [يوسف: ٩٥] أي: في محبتك، قال الشاعر:

هذا الضَّلالُ أشاب مني المفرقا العارضين ولم أكن مُتحققا
عَجَبًا لعزةَ في اختيار قطيعتي بَعْد الضَّلال فحبلُهَا قد أخلقا

وقيل : ﴿ضَالاًّ﴾ في شعاب مكة، فهداك وردك إلى جدك عبد المطلب، قال ابن عباس: ضل النبي ﷺ وهو صغير في شعاب مكة، فرآه أبو جهل منصرفًا عن أغنامه، فرده إلى جده عبدالمطلب؛ فمن الله عليه بذلك، حين رده إلى جده على يدي عدوه [(١)] ، وقال سعيد بن جبير: خرج النبي ﷺ مع عمه أبي طالب في سفر ، فأخذ إبليس بزمام الناقة في ليلة ظلماء ، فعدل بها عن الطريق ، فجاء جبريل عليه السلام، فنفخ إبليس نفخة وقع منها إلى أرض الهند ، ورده إلى القافلة ؛ فمن الله عليه بذلك، وقال كعب: إن حليمة لما قضت حق الرضاع، جاءت برسول الله ﷺ لترده على عبدالمطلب، فسمعت عند باب مكة: هنيئا لك يا بطحاء مكة، اليوم يرد إليك النور والدين والبهاء والجمال، قالت: فوضعته لأصلح ثيابي ، فسمعت هدة شديدة ، فالتفت فلم أره ، فقلت : معشر الناس ، أين الصبي؟ فقال: لم نر شيئا ؛ فصحت : وامحمداه فإذا شيخ فان يتوكأ على عصاه ، فقال : اذهبي إلى الصنم الأعظم، فإن شاء أن يرده عليك فعل ، ثم طاف الشيخ بالصنم ، وقبل رأسه وقال : يا رب ، لم تزل منتك على قريش ، وهذه السعدية تزعم أن ابنها قد ضل ، فرده إن شئت ، فانكب هبل على وجهه، وتساقطت الأصنام ، وقالت: إليك عنا أيها الشيخ، فهلاكنا على يدي محمد، فألقى الشيخ عصاه، وارتعد وقال : إن لابنك ربًا لا يضيعه، فاطلبيه على مهل، فانحشرت قريش إلى عبد المطلب ، وطلبوه في جميع مكة ، فلم يجدوه ، فطاف عبدالمطلب بالكعبة سبعا ، وتضرع إلى الله أن يرده ، وقال:

يا رب رُدَّ ولدي مُحمدا اردده ربي واتخذ عِندي يَدا

(١) رواه البغوي (٨/ ٤٥٦) في تفسيره من طريق أبي الضحى ، عن ابن عباس .

يا رب إنْ مُحمدٌ لم يوجدا فَشَمْلُ قومي كُلِّهم تَبـددا

فسمعوا مناديا ينادي من السماء: معاشر الناس لا تضجوا، فإن لمحمد ربا لا يخذله ولا يضيعه، وإن محمدا بوادي تهامة، عند شجرة السمر، فسار عبد المطلب هو وورقة بن نوفل، فإذا النبي ﷺ قائم تحت شجرة، يلعب بالأغصان وبالورق، وقيل ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا﴾ ليلة المعراج، حين انصرف عنك جبريل وأنت لا تعرف الطريق، فهداك إلى ساق العرش (١)، وقال أبو بكر الوراق وغيره: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا﴾: تحب أبا طالب، فهداك إلى محبة ربك، وقال بسام بن عبد الله ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا﴾ بنفسك لا تدري من أنت، فعرفك بنفسك وحالك، وقال الجنيد: ووجدك متحيرًا في بيان الكتاب، فعلمك البيان؛ بيانه ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤] الآية، ﴿لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [النحل: ٦٤]، وقال بعض المتكلمين: إذا وجدت العرب شجرة منفردة في فلاة من الأرض، لا شجر معها، سموه ضالة، فيهتدي بها إلى الطريق؛ فقال الله تعالى لنبيه محمد ﷺ ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا﴾ أي: لا أحد على دينك، وأنت وحيد ليس معك أحد؛ فهديت بك الخلق إلي.

قلت: هذه الأقوال كلها حسان، ثم منها ما هو معنوي، ومنها ما هو حسي، والقول الأخير أعجب إلي؛ لأنه يجمع الأقوال المعنوية، وقال قوم: إنه كان على جملة ما كان القوم عليه، لا يظهر لهم خلافا في ظاهر الحال؛ فأما الشرك فلا يظن به؛ بل كان على مراسم القوم في الظاهر أربعين سنة، وقال الكلبي والسدي: هذا على ظاهره؛ أي: وجدك كافرًا والقوم كفار فهداك (٢)، وقد مضى هذا القول والرد عليه في سورة «الشورى»، وقيل: وجدك مغمورا بأهل الشرك، فميزك عنهم، يقال: ضل الماء في اللبن؛ ومنه ﴿أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ﴾ [السجدة: ١٠] أي: لحقنا بالتراب عند الدفن، حتى كأنا لا نتميز من جملته، وفي قراءة الحسن: «ووجدك ضالٌّ فهُدَى» أي: وجدك الضال فاهتدى بك؛ وهذه قراءة على التفسير، وقيل ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا﴾ لا يهتدي إليك قومك، ولا يعرفون قدرك؛ فهدى المسلمين إليك، حتى آمنوا بك.

﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨﴾

أي: فقيرا لا مال لك، ﴿فَأَغْنَىٰ﴾ أي: فأغناك بخديجة رضي الله عنها؛ يقال: عَال الرَّجل يَعِيلُ عَيْلةً: إذا افتقر، وقال أحيحة بن الجلاح:

فما يدري الفقيرُ متى غناهُ وما يدري الغَنيُّ متى يَعيلُ

أي: يفتقر، وقال مقاتل: فرضاك بما أعطاك من الرزق، وقال الكلبي: قنعك بالرزق، وقال ابن

---

(١) غريب جدًا: البغوي (٨/ ٤٥٦) في تفسيره وعنه ابن كثير (٨/ ٣٣٣) في تفسيره، عن سعيد بن جبير، لكن هذا كلام لا يستقيم مع عصمة الأنبياء من الشيطان، والله أعلم.

(٢) معاذ الله أن تقول بمثل هذا، فكيف يجوز أن يكون النبي كافرًا، وهو الذي اختاره ربه للنبوة، ولو كان ذا كذا لعيرّه قومه بأنه عبد أصنامهم وكان على دينهم، ولا ينبغي لأحد أن يقول به، بل الثابت كما سيأتي في سورة (اقرأ) أنه عليه السلام كان يتحنث على ملة إبراهيم عليه السلام، ثم إن أهل الكلام ـ على ما بهم من ضلال ـ يثبتون النبوة من خلال سيرة النبي ﷺ قبل بعثته ـ فكيف نقول نحن: أنه كان كافرًا ؟! سبحانك هذا بهتان عظيم.

عطاء: وجدك فـقير النفس، فأغنى قـلبك، وقال الأخفش: وجدك ذا عـيال؛ دليله ﴿ فَأَغْنَىٰ﴾، ومنه قول جرير:

اللهُ أنزلَ في الكتابِ فريضةً لابنِ السَّبيلِ وللفقيرِ العَائِلِ

وقيل: وجدك فقـيراً من الحجج والبراهين، فأغناك بها، وقيل: أغـناك بما فتح لك من الفتوح، وأفاءه عليك من أموال الكفار، القشيري وفي هذا نظر؛ لأن السورة مكية، وإنما فرض الجهاد بالمدينة.

وقراءة العامة: ﴿عَائِلاً﴾، وقرأ ابن السميقع «عَيِّلاً» بالتشديد؛ مثل طبيب وهين.

﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١ ﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ﴾ أي: لا تسلط عليه بـالظلم، ادفع إليه حقـه، واذكر يتمك؛ قاله الأخفش، وقيل: همـا لغتان بمعنى، وعن مجاهد ﴿فَلا تَقْهَرْ﴾ فلا تحتقـر، وقرأ النخعي والأشهب العقيلي «تكهـر» بالكاف، وكذلك هو في مصحف ابن مسعـود، فعلى هذا يحتمل أن يكون نهيـا عن قهره، بظلمـه وأخذ ماله، وخص اليـتيم لأنه لا ناصر له غـير الله تعالى؛ فـغلظ في أمره، بتغليظ العقوبة على ظالمه، والعرب تعاقـب بين الكاف والقاف، النحاس: وهذا غلط، إنما يقال كهره: إذا اشتد عليه وغلظ، وفي صحيح مـسلم من حديث معاوية بن الحكم السلمي، حين تكلم في الصلاة برد السلام، قال: فبأبي هو وأمي ما رأيت معلمـا قبله ولا بعده أحسن تعليما منه يعني رسول الله ﷺ فوالله ما كهرني، ولا ضربني، ولا شتمني . . الحديث [1]. وقيل: القهر: الغلبة، والكهر: الزجر.

الثانية: ودلت الآية على اللطف باليتيم، وبره والإحسان إليه؛ حتى قال قتادة: كن لليتيم كالأب الرحيم، وروي عن أبي هريرة أن رجـلا شكا إلى النبي ﷺ قسوة قلبه؛ فـقال: «إن أردت أن يلين، فامسح رأس اليـتيم، وأطعم المسكين» [2]، وفي الصحيح عن أبـي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «أنا وكافل اليتيم له أو لغيره كهاتين»، وأشار بالسبابة والوسطى [3]، ومن حديث ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «إن اليتيم إذا بكى اهتز لبكائه عرش الرحمن، فيقول الله تعالى لملائكته: يا ملائكتي، من ذا الذي أبكى هذا اليتيم الذي غيبت أباه في التراب، فـتقول الملائكة: ربنا أنت أعلم، فيقول الله تعالى لملائكته: يا ملائكتي، اشـهدوا أن من أسكته وأرضاه: أن أرضيه يوم القيـامة»، فكان ابن عمر إذا رأى يتيمًا مسح بـرأسه، وأعطاه شيئًا [4]، وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: « من ضم يتيمًا فكان في نفقته، وكفاه مؤونته، كان له حـجابًا من النار يوم القيامة، ومن مسح برأس يتيم كان له بكل شعرة حسنة» [5]، وقال أكثم بن صيفي: الأذلاء أربعة: النمام، والكذاب، والمديون، واليتيم.

---

(١) صحيح: مسلم (٥٣٧/ ٣٣، ٣٣ مكرر) في المساجد ومواضع الصلاة.

(٢) حسن: الهيثمي (٨/ ١٦٠) في المجمع وعزاه لأحمد ورجاله رجال الصحيح.

(٣) متفق عليه: وقد سبق.

(٤) ضعيف جدًا إن لم يكن موضوعًا: السيوطي (٢/ ٨٤) في اللآلىء المصنوعة.

(٥) ضعيف جدًا: الكامل (٣/ ٢٤٦) لابن عدي.

الثالثة : قوله تعالى﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ﴾ أي: لا تزجره؛ فهو نهى عن إغلاظ القول، ولكن رده ببذل يسير، أو رد جميل، واذكر فقرك؛ قاله قتادة وغيره، وروي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: « لا يمنعن أحدكم السائل، وأن يعطيه إذا سأل، ولو رأى في يده قلبين من ذهب» [١]، وقال إبراهيم بن أدهم: نعم القوم السُّؤَّال: يحملون زادنا إلى الآخرة، وقال إبراهيم النخعي: السائل بريد الآخرة، يجيء إلى باب أحدكم فيقول: هل تبعثون إلى أهليكم بشيء، وروي أن النبي ﷺ قال: «ردوا السائل ببذل يسير، أو رد جميل، فإنه يأتيكم من ليس من الإنس ولا من الجن، ينظر كيف صنيعكم فيما خولكم الله» [٢]، وقيل: المراد بالسائل هنا، الذي يسأل عن الدين؛ أي: فلا تنهره بالغلظة والجفوة، وأجبه برفق ولين؛ قاله سفيان، قال ابن العربي [٣]: وأما السائل عن الدين فجوابه فرض على العالم، على الكفاية؛ كإعطاء سائل البر سواء، وقد كان أبو الدرداء ينظر إلى أصحاب الحديث، ويبسط رداءه لهم، ويقول: مرحبًا بأحبة رسول الله ﷺ، وفي حديث أبي هارون العبدي، عن أبي سعيد الخدري، قال: كنا إذا أتينا أبا سعيد يقول: مرحبا بوصية رسول الله ﷺ، إن رسول الله ﷺ قال: « إن الناس لكم تبع وإن رجالاً يأتونكم من أقطار الأرض يتفقهون، فإذا أتوكم فاستوصوا بهم خيرًا» [٤]، وفي رواية «يأتيكم رجال من قبل المشرق»... فذكره. و﴿الْيَتِيمَ﴾ و﴿السَّائِلَ﴾ منصوبان بالفعل الذي بعده؛ وحق المنصوب أن يكون بعد الفاء، والتقدير: مهما يكن من شيء فلا تقهر اليتيم، ولا تنهر السائل، وروي أن النبي ﷺ قال: «سألت ربي مسألة وددت أني لم أسألها، قلت: يا رب اتخذت إبراهيم خليلا، وكلمت موسى تكليما، وسخرت مع داود الجبال يسبحن، وأعطيت فلانًا كذا؛ فقال عز وجل: ألم أجدك يتيما فآويتك؟ ألم أجدك ضالاً فهديتك؟ ألم أجدك عائلا فأغنيتك؟ ألم أشرح لك صدرك؟ ألم أوتك ما لم أوت أحدا قبلك: خواتيم سورة «البقرة»، ألم أتخذك خليلا كما اتخذت إبراهيم خليلا؟ قلت بلى يا رب» [٥].

الرابعة : قوله تعالى﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ أي: أنشر ما أنعم الله عليك بالشكر والثناء، والتحدث بنعم الله، والاعتراف بها شكر، وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ قال بالقرآن، وعنه قال: بالنبوة؛ أي: بلغ ما أرسلت به، والخطاب للنبي ﷺ، والحكم عام له ولغيره، وعن الحسن بن علي رضي الله عنهما قال: إذا أصبت خيرًا، أو عملت خيرًا، فحدث به الثقة من إخوانك، وعن عمرو بن ميمون قال: إذا لقي الرجل من إخوانه من يثق به، يقول له: رزق الله من الصلاة البارحة وكذا وكذا، وكان أبو فراس عبدالله بن غالب إذا أصبح يقول: لقد رزقني الله البارحة

---

(١) ضعيف : الهيثمي (٣/ ١٠١، ١٠٢) في المجمع وعزاه للبزار ، وقال : «وفيه الحسن بن علي الهاشمي النوماني وهو ضعيف » القُلب ـ بضم القاف وسكون اللام : هو سوار المرأة . اللسان «قلب» .

(٢) إنما ورد بلفظ « ردوا السائل ولو بظلف محترق » رواه ابن حبان (٨٢٥) ، والنسائي (٥/ ٨١) ، وأحمد (٤/ ٧٠) ، عن زيد بن أسلم ، عن بجيد الأنصاري عن جدته.

(٣) أحكام القرآن (٤/ ١٩٤٧) للقاضي ابن العربي المالكي .

(٤) حسن : ابن ماجه (٢٤٧) في المقدمة وحسنه الألباني هناك .

(٥) أقرب إلى الضعف منه إلى الصحة : والهيثمي (٨/ ٢٥٣، ٢٥٤) في المجمع، وعزاه للطبراني في الكبير والأوسط بسند فيه عطاء بن السائب ، وقال : وقد اختلط .

كذا، قرأت كذا، وصليت كذا، وذكرت اللّه كذا، وفعلت كذا، فيقال له : يا أبا فراس ، إن مثلك لا يقول هذا قال يقول اللّه تعالى﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ وتقولون أنتم: لا تحدث بنعمة اللّه ونحوه عن أيوب السختياني وأبي رجاء العطاردي رضي اللّه عنهم، وقال بكر بن عبدالله المزني قال النبي ﷺ: «من أعطي خيرًا فلم ير عليه، سمي بغيض اللّه، معاديًا لنعم اللّه» (١)، وروى الشعبي عن النعمان ابن بشير قال: قال النبي ﷺ: « من لم يشكر القليل، لم يشكر الكثير، ومن لم يشكر الناس، لم يشكر اللّه، والتحدث بالنعم شكر، وتركه كفر، والجماعة رحمة، والفرقة عذاب» (٢)، وروى النسائي عن مالك بن نضلة الجشمي قال: كنت عند رسول اللّه ﷺ جالسًا، فرآني رث الثياب فقال: « ألك مال؟» قلت: نعم، يا رسول اللّه، من كل المال، قال: « إذا آتاك اللّه مالاً فلير أثره عليك» (٣)، وروى أبو سعيد الخدري عن رسول اللّه ﷺ أنه قال: « إن اللّه جميل يحب الجمال، ويحب أن يرى أثر نعمته على عبده» (٤).

فصل: يُكبر القارئ في رواية البزي عن ابن كثير - وقد رواه مجاهد عن ابن عباس، عن أُبي بن كعب، عن النبي ﷺ : إذا بلغ آخر «والضحى» كبر بين كل سورة تكبيرة ، إلى أن يختم القرآن ، ولا يصل آخر السورة بتكبيره؛ بل يفصل بينهما بسكتة، وكأن المعنى في ذلك أن الوحي تأخر عن النبي ﷺ أياما، فقال ناس من المشركين: قد ودعه صاحبه وقلاه؛ فنزلت هذه السورة فقال: « اللّه أكبر»، قال مجاهد: قرأت على ابن عباس، فأمرني به، وأخبرني به عن أبيّ عن النبي ﷺ (٥)، ولا يكبر في قراءة الباقين؛ لأنها ذريعة إلى الزيادة في القرآن.

قلت: القرآن ثبت نقلاً متواترًا سوره وآياته وحروفه؛ لا زيادة فيه ولا نقصان؛ فالتكبير على هذا ليس بقرآن، فإذا كان بسم اللّه الرحمن الرحيم المكتوب في المصحف بخط المصحف ليس بقرآن، فكيف بالتكبير الذي هو ليس بمكتوب، أما أنه ثبت سنة بنقل الآحاد، فاستحبه ابن كثير، لا أنه أوجبه فخطأ من تركه، ذكر الحاكم أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحافظ في كتاب «المستدرك» له على البخاري ومسلم: حدثنا أبو يحيى محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن يزيد، المقرئ

---

(١) مرسل : بكر تابعي ـ رحمه الله .

(٢) ضعيف : أحمد (٤/ ٢٧٨، ٣٧٥) في المسند وابنه عبد الله (٤/ ٣٧٥) في زوائد المسند مرسلاً ، وضعفه السيوطي (٦/ ٦١٢) في الدر المنثور ، وابن كثير (٨/ ٣٣٤) في تفسيره وضعفه .

(٣)صحيح : أبو داود (٤٠٦٣) في اللباس وصححه الألباني هناك .

(٤) حسن : حسنه الهيثمي (٥/ ١٣٢) في المجمع وعزاه لأبي يعلى .

(٥) قال ابن كثير (٨/ ٣٣٠) في التفسير بعد روايته لهذا الحديث : « فهذه سنة تفرّد بها أبو الحسن البزى وهو من ولد القاسم بن أبي بزة ، وكان إمامًا في القراءات ، فأمّا في الحديث فقد ضعّفه أبو حاتم الرازي ، وقال : لا أحدث عنه ، وكذلك أبو جعفر العقيلي ، قال : هو منكر الحديث ، لكن حكى الشيخ شهاب الدين أبو شامة في شرح الشاطبية ، عن الشافعي أنه سمع رجلاً يكبرّ هذا التكبير في الصلاة ، فقال : أحسنت وأصبت السنة، وهذا يقتضي صحة الحديث . ا . هـ .

قلت : لا يقتضي هذا صحة الحديث والله أعلم ، فالعبرة براوى الحديث ، وهو : ضعيف ، وقد تفرّد به فلا يتابع عليه ، والله أعلم .

الإمام بمكة، في المسجد الحرام، قال: حدثنا أبو عبد الله محمد بن علي بن زيد الصائغ، قال: حدثنا أحمد بن محمد بن القاسم بن أبي بزة: سمعت عكرمة بن سليمان يقول: قرأت على إسماعيل بن عبد الله بن قسطنطين، فلما بلغت ﴿وَالضُّحَىٰ﴾ قال لي: كبر عند خاتمة كل سورة حتى تختم، فإني قرأت على عبد الله بن كثير فلما بلغت ﴿وَالضُّحَىٰ﴾ قال: كبر حتى تختم، وأخبره عبد الله بن كثير أنه قرأ على مجاهد [فأمره بذلك]، وأخبره مجاهد أن ابن عباس أمره بذلك، وأخبره ابن عباس أن أبيّ بن كعب أمره بذلك، وأخبره أبيّ بن كعب أن رسول الله ﷺ أمره بذلك، هذا حديث صحيح ولم يخرجاه (١).

(١) هكذا عند الحاكم (٥٣٢٥) في المستدرك، والبغوي (٨/ ٤٦٠) في التفسير، وانظر كلام ابن كثير السابق في تفسيره.

سـورة الشرح

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة السورة

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝ ﴾

شرح الصدر: فتحه؛ أي: ألم نفتح صدرك للإسلام. وروى أبو صالح عن ابن عباس قال: ألم نلين لك قلبك . وروى الضحاك عن ابن عباس قال: قالوا يا رسول الله، أينشرح الصدر؟ قال: «نعم وينفسح»، قالوا: يا رسول الله، وهل لذلك علامة؟ قال: «نعم»، التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل نزول الموت» (٢)، وقد مضى هذا المعنى في «الزمر» عند قوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ [الزمر: ٢٢]، وروي عن الحسن قال: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ قال: مُلئ حكمًا وعلمًا، وفي الصحيح عن أنس بن مالك، عن مالك بن صعصعة - رجل من قومه - أن النبي ﷺ قال: « فبينا أنا عند البيت بين النائم واليقظان إذ سمعت قائلا يقول: أحد الثلاثة فأُتيت بطست من ذهب، فيها ماء زمزم، فشرح صدري إلى كذا وكذا » قال قتادة قلت: ما يعني؟ قال: إلى أسفل بطني، قال: «فاستخرج قلبي، فغسل قلبي بماء زمزم، ثم أعيد مكانه، ثم حشي إيمانا وحكمة»، وفي الحديث قصة (٣)، وروي عن النبي ﷺ قال: « جاءني ملكان في صورة طائر، معهما ماء وثلج، فشرح أحدهما صدري، وفتح الآخر بمنقاره فيه فغسله »(٤)، وفي حديث آخر قال: «جاءني ملك فشق عن قلبي، فاستخرج منه عذرة (٥)، وقال: قلبك وكيع، وعيناك بصيرتان، وأذناك سميعتان، أنت محمد رسول الله، لسانك صادق، ونفسك مطمئنة، وخلقك قثم، وأنت قيم» (٦)، قال أهل اللغة: قوله «وكيع» أي: يحفظ ما يوضع فيه، يقال: سقاء وكيع؛ أي: قوي يحفظ ما يوضع فيه، واستوكعت معدته، أي: قويت، وقوله: «قثم» أي: جامع، يقال: رجل قثوم للخير؛ أي: جامع له، ومعنى ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾ قد شرحنا؛ الدليل؛ على

---

(١) ضعيف جدًا : أبو صالح يكذب علي ابن عباس ـ رضي الله عنهما . وانظر تفسير الطبري (٣٠/ ٢٥٤) .

(٢) ضعيف : وقد سبق .

(٣) متفق عليه : البخاري (٣٢٠٧) في بدء الخلق ، ومسلم (١٦٤، ٢٦٤) في الإيمان ضمن حديث المعراج.

(٤) بل قال: ((طائران)) أو ((نسران)) كما في حديث أحمد ، عن عتبة السُّلمي وحسنه الهيثمي (٨/ ٢٢٢) في المجمع .

(٥) بل هي علقة كما في حديث أنس عند مسلم .

(٦) كذا عند الدارمي (١/ ٤٢) في سننه (٥٣) عن ابن غنم ، وفيه أبو صالح كاتب الليث وهو ضعيف ، ومعاوية بن صالح وفيه ضعف وقد وثق ، وقُثَم : مجتمع الخلق ، وقيل : الجامع الكامل كما في النهاية (٤/ ١٦) وزاد: «الجموع للخير».

ذلك قوله في النسق عليه ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾، فهذا عطف على التأويل، لا على التنزيل؛ لأنه لو كان على التنزيل لقال: ونضع عنك وزرك، فدل هذا على أن معنى ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾: قد شرحنا، و﴿لَمْ﴾ جحد، وفي الاستفهام طرف من الجحد، وإذا وقع جحد، رجع إلى التحقيق؛ كقوله تعالى ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ [التين: ٨]، ومعناه: الله أحكم الحاكمين. وكذا ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦]. ومثله قول جرير يمدح عبدالملك بن مروان:

ألستم خيرَ مَنْ ركِبَ المطَايا وأندى العالمينَ بُطون رَاحِ

المعنى: أنتم كذا.

﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ أي: حططنا عنك ذنبك، وقرأ أنس «وحللنا، وحططنا» (١)، وقرأ ابن مسعود: «وحللنا عنك وقرك» (٢)، وهذه الآية مثل قوله تعالى ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢]، قيل: الجميع كان قبل النبوة، والوزر: الذنب؛ أي: وضعنا عنك ما كنت فيه من أمر الجاهلية؛ لأنه كان ﷺ في كثير من مذاهب قومه، وإن لم يكن عبد صنمًا ولا وثنًا، قال قتادة والحسن والضحاك: كانت للنبي ﷺ ذنوب أثقلته؛ فغفرها الله له(٣) ﴿الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ أي: أثقله حتى سُمع نقيضه؛ أي: صوته، وأهل اللغة يقولون: أنقض الحمل ظهر الناقة: إذا سمعت له صريرًا من شدة الحمل، وكذلك سمعت نقيض الرحل؛ أي: صريره، قال جميل:

وحتى تَداعَتْ بالنقيضِ حِبَالُهُ وَهَمَّت بَواني زوره أن تَحطَّما

بواني زوره: أي: أصول صدره، فالوزر: الحمل الثقيل، قال المحاسبي: يعني ثقل الوزر لو لم يعف الله عنه، ﴿الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ أي: أثقله وأوهنه، قال: وإنما وصفت ذنوب الأنبياء بهذا الثقل، مع كونها مغفورة، لشدة اهتمامهم بها، وندمهم منها، وتحسرهم عليها، وقال السدي ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ أي: وحططنا عنك ثقلك، وهي في قراءة عبدالله بن مسعود «وحططنا عنك وقرك»، وقيل: أي: حططنا عنك ثقل آثام الجاهلية، قال الحسين بن الفضل: يعني الخطأ والسهو، وقيل: ذنوب أمتك، أضافها إليه لاشتغال قلبه بها، وقال عبدالعزيز بن يحيى وأبو عبيدة: خففنا عنك أعباء النبوة والقيام بها، حتى لا تثقل عليك، وقيل: كان في الابتداء يثقل عليه الوحي، حتى كاد يرمي نفسه من شاهق الجبل، إلى أن جاءه جبريل وأراه نفسه؛ وأزيل عنه ما كان يخاف من تغير العقل، وقيل: عصمناك عن احتمال الوزر، وحفظناك قبل النبوة في الأربعين من الأدناس؛ حتى نزل عليك الوحي وأنت مطهر من الأدناس.

﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝﴾

قال مجاهد: يعني بالتأذين، وفيه يقول حسان بن ثابت:

أغر عليه للنبوةِ خَاتَم من اللهِ مَشْهود يَلوحُ وَيشْهَدُ

(١، ٢) قراءتان غير متواترتين: كما في معاني القرآن للفراء (٣/ ٢٧٥).

(٣) هذا وإن صح سندًا لا يصح متنًا وإلا فأين العصمة؟ وانظر الطبري (٣٠/ ٢٥٥) في تفسيره.

وضَمَّ الإلهُ اسمَ النبيِّ إلى اسمه إذا قال في الخمس المؤذنُ أشهدُ

وروي الضحـاك عن ابن عباس، قال: يقـول له لا ذُكِرتُ إلا ذُكِرتَ معي في الأذان، والإقـامة والتشهـد، ويوم الجمعة على المـنابر، ويوم الفطر، ويوم الأضحى وأيام التشريق، ويوم عـرفة، وعند الجمار، وعلى الصفا والمروة، وفي خطبة النكاح، وفي مشـارق الأرض ومغاربها، ولو أن رجلا عبد اللّه جل ثناؤه، وصدق بالجنـة والنار وكل شيء، ولم يشهد أن مـحمدا رسول اللّـه، لم ينتفع بشيء وكان كـافرا، وقـيل: أي: أعلينا ذكرك، فذكـرناك في الكتب المنزلة على الأنبـياء قبلـك، وأمرناهم بالبـشارة بك، ولا دين إلا ودينك يظهـر عليه، وقـيل: رفعنا ذكـرك عند الملائكة في السـماء، وفي الأرض عند المؤمنين، ونرفع في الآخرة ذكرك بما نعطيك من المقام المحمود، وكرائم الدرجات.

﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾

أي: إن مع الضيـقة والشدة يسـرا، أي: سعة وغنى، ثم كرر فـقال ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾، فقال قوم: هذا التكرير تأكيد للكلام؛ كمـا يقال: ارْمِ ارْمِ، اعْجَلْ اعْجَلْ؛ قال اللّه تعالى ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [التكاثر: ٣]، ونظيره في تكرار الجـواب: بلى بلى، لا لا، وذلك للإطناب والمبالغة؛ قاله الفراء، ومنه قول الشاعر:

هَمَمْتُ بنفسي بعضَ الهُمومِ فأولى لنفسي أولى لها

وقال قوم: إن من عادة العرب إذا ذكروا اسما مـعرفا ثم كرروه، فهو هو، وإذا نكروه ثم كرروه فهو غيره، وهما اثنان، ليكون أقوى للأمل، وأبعث على الصبر؛ قاله ثعلب، وقال ابن عباس: يقول اللّه تعالى خلـقت عسرًا واحـدًا، وخلقت يسرين، ولن يغلب عـسر يسرين، وجـاء في الحديث عن النبي ﷺ في هذه السورة: أنه قال: «لن يغلب عـسر يسرين» (٣)، وقال ابن مسـعود: والذي نفسي بيده، لو كان العسـر في حجر، لطلبه اليسر حتى يدخل عليـه؛ ولن يغلب عسر يسرين (٤)، وكتب أبو عبيدة بن الجـراح إلى عمر بن الخطاب يذكر له جموعا من الروم، ومـا يتخوف منهم؛ فكتب إليه عمر رضي اللّه عنهما: أمـا بعد، فإنه مهما ينزل بعبد مؤمن من منزل شـدة، يجعل اللّه بعده فرجا، وإنه لن يغلب عسر يسرين، وإن اللّه تعـالى يقول في كتابه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]، وقال قوم منهم الجرجـاني: هذا قول مدخول؛ لأنه يجب على هذا التدريج إذا قال الرجل: إن مع الفارس سيفًا، إن مع الفارس سيفًا، أن يكون الفارس واحدًا والسيف اثنان، والصحيح أن يقال: إن اللّه بعث نبيه محمدا ﷺ مقلا مخفا، فعيره المشركون بفقره، حتى قالوا له: نجمع لك مالا؛ فاغتم وظن أنهم كذبوه لفـقره؛ فعزاه اللّه، وعدد نعمه عليه، ووعده الغنى بقوله: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ أي: لا يحزنك ما عيروك به من الفـقر؛ فإن مع ذلك العسر يسرا عاجلا؛ أي: في الدنيا، فأنجز له ما وعده؛ فلم يمت حتى فتح عليه الحجاز واليمن، ووسع ذات يده،

---

(١) مرسل ضعيف: الطبري (٣٠/ ٢٥٦) في تفسيره بطرقه، عن الحسن، وكذا الحاكم (٣٩٥٠) في المستدرك، وانظر ضعيف الجامع (٤٧٨٤).

(٢) فيه جهالة المحدث، عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه: الطبري (٣٠/ ٢٥٧) في تفسيره، وابن كثير (٨/ ٣٣٧) في تفسيره.

حتى كان يعطي الرجل المائتين من الإبل، ويهب الهبات السنية، ويعد لأهله قوت سنة، فهذا الفضل كله في أمر الدنيا؛ وإن كان خاصا بالنبي ﷺ، فقد يدخل فيه بعض أمته إن شاء الله تعالى، ثم ابتدأ فضلا آخرا من الآخرة وفيه تأسية وتعزية له ﷺ، فقال مبتدئا: ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ فهو شيء آخر، والدليل على ابتدائه، تعريه من فاء أو واو وغيرها من حروف النسق التي تدل على العطف، فهذا وعد عام لجميع المؤمنين، لا يخرج أحد منه؛ أي: إن مع العسر في الدنيا للمؤمنين يُسرًا في الآخرة لا محالة، وربما اجتمع يسر الدنيا ويسر الآخرة، والذي في الخبر: «لن يغلب عسر يسرين» يعني: العسر الواحد لن يغلبهما، وإنما يغلب أحدهما إن غلب، وهو يسر الدنيا؛ فأما يسر الآخرة فكائن لا محالة، ولن يغلبه شيء، ويقال: ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ﴾ وهو إخراج أهل مكة النبي ﷺ من مكة ﴿يُسْرًا﴾، وهو دخوله يوم فتح مكة مع عشرة آلاف رجل، مع عز وشرف.

﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ۝ ﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ﴾ قال ابن عباس وقتادة: فإذا فرغت من صلاتك [١] ﴿فَانصَبْ﴾ أي: بالغ في الدعاء وسله حاجتك، وقال ابن مسعود: إذا فرغت من الفرائض فانصب في قيام الليل[٢]، وقال الكلبي: إذا فرغت من تبليغ الرسالة ﴿فَانصَبْ﴾ أي: استغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات، وقال الحسن وقتادة أيضًا: إذا فرغت من جهاد عدوك، فانصب لعبادة ربك، وعن مجاهد ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ﴾ من دنياك، ﴿فَانصَبْ﴾ في صلاتك [٣]، ونحوه عن الجنيد، وقال الجنيد: إذا فرغت من أمر الخلق، فاجتهد في عبادة الحق، قال ابن العربي ومن المبتدعة من قرأ هذه الآية «فانْصِبْ» بكسر الصاد، والهمز من أوله، وقالوا: معناه: انصب الإمام الذي تستخلفه، وهذا باطل في القراءة، باطل في المعنى؛ لأن النبي ﷺ لم يستخلف أحداً، وقرأها بعض: الجهال «فانْصَبَّ» بتشديد الباء، معناه: إذا فرغت من الجهاد، فجد في الرجوع إلى بلدك، وهذا باطل أيضا قراءة، لمخالفة الإجماع، لكن معناه صحيح؛ لقوله ﷺ: «السفر قطعة من العذاب، يمنع أحدكم نومه وطعامه وشرابه، فإذا قضى أحدكم نهمته، فليعجل الرجوع إلى أهله» [٤]، وأشد الناس عذابا وأسوؤهم مباء ومآبا، من أخذ معنى صحيحا، فركب عليه من قبل نفسه قراءة أو حديثا، فيكون كاذبا على الله، كاذبا على رسوله؛ ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا، قال المهدوي: وروي عن أبي جعفر المنصور: أنه قرأ «ألم نشرح لك صدرك» بفتح الحاء؛ وهو بعيد، وقد يؤول على تقدير النون الخفيفة، ثم أبدلت النون ألفا في الوقف، ثم حمل الوصل على الوقف، ثم حذف الألف، وأنشد عليه:

---

(١) ضعيف إلى ابن عباس: الطبري (٣٠/ ٢٥٧) من طريق العوفيين وصحيح إلى قتادة: السابق (٣٠/ ٢٥٨).
(٢) رواه ابن أبي حاتم (١٢/ ٤٢٧) وابن المنذر كما في الدر المنثور (٦/ ٦١٧) للسيوطي.
(٣) الطبري (٣٠/ ٢٥٨) في تفسيره.
(٤) متفق عليه: البخاري (١٨٠٤) في العمرة، ومسلم (١٩٢٧) في الإمارة، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه. ونهمته: النهمة: بلوغ الهمة في شيء ـ النهاية (٥/ ١٣٨).

اضرب عنك الهمومَ طَارِقها ضَربك بالسَّوطِ قَوْنَسَ الفَرَسِ

أراد: اضرِبَنْ، وروي عن أبي السمال «فإذا فَرِغْتَ» بكسر الراء، وهي لغة فيه، وقرئ: «فرغِّب» أي: فرغب الناس إلى ما عنده.

الثانية: قال ابن العربي (١): روي عن شريح أنه مر بقوم يلعبون يوم عيد، فقال: ما بهذا أمر الفارغ، وفيه نظر، فإن الحبش كانوا يلعبون بالدرق والحراب في المسجد يوم العيد، والنبي ﷺ ينظر، ودخل أبو بكر في بيت رسول الله ﷺ على عائشة رضي الله عنها وعندها جاريتان من جواري الأنصار تغنيان؛ فقال أبو بكر: أبمزمور الشيطان في بيت رسول الله ﷺ ؟ فقال: « دعهما يا أبا بكر، فإنه يوم عيد » (٢)، وليس يلزم الدؤوب على العمل، بل هو مكروه للخلق.

(١) أحكام القرآن (٤/ ١٩٥٠) لابن العربي المالكي .

(٢) متفق عليه : البخاري (٩٥٢) في العيدين ، ومسلم (٨٩٢/ ١٦، ١٦مكرر ، ١٨، ١٩، ٢٠، ٢٠ مكرر ، ٢١) واللفظ لمسلم (١٦) ، عن عائشة ـ رضي الله عنها .

obeikandl.com

سـورة التين

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝ ﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى : قوله تعالى: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾ قال ابن عباس والحسن ومجاهد وعكرمة وإبراهيم النخعي وعطاء بن أبي رباح وجابر بن زيد ومقاتل والكلبي: هو تينكم الذي تأكلون، وزيتونكم الذي تعصرون منه الزيت [(١)]؛ قال الله تعالى ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٠]، وقال أبو ذر: أهدي للنبي ﷺ سل تين؛ فقال: «كلوا» وأكل منه، ثم قال: «لو قلت إن فاكهة نزلت من الجنة لقلت هذه، لأن فاكهة الجنة بلا عجم، فكلوها فإنها تقطع البواسير، وتنفع من النقرس» [(٢)]، وعن معاذ: أنه استاك بقضيب زيتون، وقال سمعت النبي ﷺ يقول: «نعم السواك الزيتون من الشجرة المباركة، يطيب الفم، ويذهب بالحفر، وهي سواكي وسواك الأنبياء من قبلي» [(٣)]،

وروي عن ابن عباس أيضا: التين: مسجد نوح عليه السلام الذي بني على الجودي، والزيتون: مسجد بيت المقدس، وقال الضحاك: التين: المسجد الحرام، والزيتون المسجد الأقصى، ابن زيد: التين: مسجد دمشق، والزيتون: مسجد بيت المقدس، قتادة: التين: الجبل الذي عليه دمشق، والزيتون: الجبل الذي عليه بيت المقدس، وقال محمد بن كعب: التين: مسجد أصحاب الكهف، والزيتون: مسجد إيلياء، وقال كعب الأحبار وقتادة أيضًا وعكرمة وابن زيد: التين: دمشق، والزيتون: بيت المقدس، وهذا اختيار الطبري [(٤)]، وقال الفراء: سمعت رجلاً من أهل الشام يقول: التين: جبال ما بين حلوان إلى همذان، والزيتون: جبال الشام، وقيل: هما جبلان بالشام، يقال لهما

---

(١) آثار مروية بأسانيد صحاح : انظر الطبري (٣٠/ ٢٦٠) في تفسيره ، وتفسير ابن أبي حاتم (١٢/ ٤٢٨) في تفسيره ، والدر المنثور (٦/ ٦١٩) للسيوطي .

(٢) ضعيف جدًا إن لم يكن موضوعًا : قال الآلوسي (٢٣/ ٢٩) في تفسيره بعد ذكر هذا الحديث : «ولم أقف للحديثين على شيء في هذا الحديث ، لكن قال داود الطبيب بعد سرد ما فيه : إن خواص التين وفي نفعه عن البواسير حديث حسن» .

قلت : هو حسن لداود لا لنا ، ولعله من وضع الوضاعين .

(٣) ضعيف : الهيثمي (٢/ ١٠٠) في المجمع ، وقال : «رواه الطبراني في الأوسط وفيه معلل بن محمد ولم أجد من ذكره» .

قلت : والحفر : هو بفتح الفاء وسكونها : صفرة تعلو الأسنان اللسان «حفر» .

(٤) قاله بعد ذكر الآثار السابقة ، انظر: تفسيره (٣٠/ ٢٦١، ٢٦٢) .

طور زيتا وطور تينا بالسريانية سـميا بذلك لأنهما ينبتانهمـا، وكذا روى أبو مكين عن عكرمة، قال: التين والزيتون: جبلان بالشام (١)، وقال زهير:

أتين التينَ عن عُرض

وهذا اسم موضـع، ويجوز أن يكون ذلك على حـذف مضاف؛ أي: ومنابت التـين والزيتون، ولكن لا دليل على ذلك من ظاهر التنزيل، ولا من قول من لا يجوز خلافه؛ قاله النحاس.

الثانية: وأصح هذه الأقوال الأول؛ لأنه الحقـيقة، ولا يعدل عن الحقيـقة إلى المجاز إلا بدليل، وإنما أقسم اللّه بالتين، لأنه كـان ستر آدم في الجنة؛ لقـوله تعالى: ﴿يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٢] وكان ورق التين، وقيل: أقسم به ليبين وجه المنة العظمى فيه؛ فإنه جميل المنظر، طيب المخبر، نشر الرائحة، سهل الجني، على قدر المضغة، وقد أحسن القائل فيه:

انظر إلى التِّينِ في الغُصون ضحى ممزق الجلد مَائـل العُنـقِ
كـأنـه رب نعمـة سُلبـت فعاد بعد الجديد فـي الخلقِ
أصغر مـا فـي النُّهـودِ أكبـره لكن يُنادى عليه فـي الطـرقِ

وقال آخر:

التِّينُ يعـدلُ عِنـدي كُلَّ فاكهـةٍ إذا انثنى مائلاً فـي غصنه الزَّاهـي
مُخمش الوجه قد سالت حلاوته كـأنه راكـعٌ مـن خشيـة اللـه

وأقسم بالزيتون لأنه مثل به إبراهيم في قوله تعالى: ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ﴾ [النور: ٣٥]، وهو أكثر أُدَم أهل الشام والمغـرب؛ يصطبغون به (٢)، ويستعـملونه في طبيخهم، ويستصـبحون به، ويداوى به أدواء الجوف والقروح والجراحـات، وفيه منافع كثيرة، وقال عـليه الصلاة والسلام: «كلوا الزيت وادهنوا به فإنه من شجرة مباركة» (٣)، وقد مضى في سورة «المؤمنون» القول فيه (٤).

الثالثة: قال ابن العربي (٥) ولامتنان البارئ سبحانه، وتعظيـم المنة في التين، وأنه مقتات مدخر فلذلك قلنا بوجوب الزكاة فيه، وإنما فـرّ كثير من العلماء من التصريح بوجوب الزكاة فـيه، تقية جور الولاة؛ فإنهم يتحاملون في الأموال الزكاتية، فيأخذونها مغرما، حسب ما أنذر به الصادق ﷺ، فكره العلماء أن يجعلوا لهم سبيلاً إلى مال آخر يتشططون فيه. ولكن ينبغي للمرء أن يخرج عن نعمة ربه، بأداء حقـه، وقد قال الشافعـي لهذه العلة وغيرها: لا زكـاة في الزيتون، والصحيح وجـوب الزكاة فيهما (٦).

---

(١) **ضعيف**: الطبري (٣٠/ ٢٦١) في تفسيره.

(٢) **يصطبغون**: يأتدمون به. اللسان «صبغ».

(٣) **صحيح**: وانظر: صحيح الجامع (٤٤٩٨) للألباني ـ رحمه الله وقد سبق.

(٤) عند الآية (٢٠).

(٥) أحكام القرآن (٤/ ١٩٥١) للقاضي ابن العربي المالكي.

(٦) وإن صح فقـد أفتى العلامة ابن باز ـ رحـمه الله ـ أنه إذ أعد للتجـارة وجبت فيه الـزكاة لكن يلحق بعـروض التجارة.

﴿ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ ﴾

روى ابن أبي نجيح عن مجاهد ﴿طُورِ﴾ قال: جبل، ﴿سِينِينَ﴾ قال: مبارك بالسريانية [١]، وعن عكرمة عن ابن عباس قال ﴿وَطُورِ﴾ جبل، و﴿سِينِينَ﴾ حسن [٢]، وقال قتادة: «سينين» هو المبارك الحسن [٣]، وعن عكرمة قال: الجبل الذي نادى الله جل ثناؤه منه موسى عليه السلام، وقال مقاتل والكلبي ﴿سِينِينَ﴾ كل جبل فيه شجر مثمر، فهو سينين وسيناء بلغة النبط [٤]، وعن عمرو بن ميمون قال: صليت مع عمر بن الخطاب العشاء بمكة، فقرأ «والتين والزيتون، وطور سِيناء، وهذا البلد الأمين» [٥] قال: وهكذا هي في قراءة عبد الله؛ ورفع صوته تعظيمًا للبيت، وقرأ في الركعة الثانية ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾ [الفيل:١]، و﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ﴾ [قريش:١] جمع بينهما، ذكره ابن الأنباري. النحاس: وفي قراءة عبدالله «سِيناء» بكسر السين، وفي حديث عمرو بن ميمون عن عمر بفتح السين، وقال الأخفش ﴿طُورِ﴾ جبل، و﴿سِينِينَ﴾ شجر واحدته سينينية، وقال أبو علي: ﴿سِينِينَ﴾ فعليل، فكررت اللام التي هي نون فيه، كما كررت في زحليل: للمكان الزلق، وكرديدة: للقطعة من التمر، وخنذيذ: للطويل، ولم ينصرف ﴿سِينِينَ﴾ كما لم ينصرف سيناء؛ لأنه جعل اسما لبقعة أو أرض، ولو جعل اسما للمكان أو للمنزل أو اسم مذكر لانصرف؛ لأنك سميت مذكرا بمذكر، وإنما أقسم بهذا الجبل لأنه بالشام والأرض المقدسة، وقد بارك الله فيهما؛ كما قال ﴿إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ [الإسراء: ١].

﴿ وَهَـٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ۝٣ ﴾

يعني مكة، سماه أمينا لأنه آمن؛ كما قال: ﴿أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا﴾ [العنكبوت: ٦٧] فالأمين: بمعنى الآمن؛ قاله الفراء وغيره، قال الشاعر:

ألم تعلمي يا أسم ويحَكِ أنَّني حَلفتُ يمينا لا أخُونُ أميني

يعني: آمني، وبهذا احتج من قال: إنه أراد بالتين دمشق، وبالزيتون بيت المقدس، فأقسم الله بجبل دمشق، لأنه مأوى عيسى عليه السلام، وبجبل بيت المقدس، لأنه مقام الأنبياء عليهم السلام، وبمكة لأنها أثر إبراهيم ودار محمد صلى الله عليهما وسلم.

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَـٰهُ أَسْفَلَ سَـٰفِلِينَ ۝٥ ﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ﴾ هذا جواب القسم، وأراد بالإنسان: الكافر، قيل: هو

(١) حسن: الطبري (٣٠/ ٢٦٣) في تفسيره، وابن أبي حاتم (١٢/ ٤٢٩) في تفسيره.
(٢) ابن أبي حاتم (١٢/ ٤٢٩) في تفسيره.
(٣) صحيح إلى قتادة: الطبري (٣٠/ ٢٦٤) في تفسيره.
(٤) ذكره الشوكاني (٨/ ٢٤) في فتح القدير.
(٥) هي قراءة شاذة، وقد روى الطبري الأثر في تفسيره (٣٠/ ٢٦٢) بسند ضعيف.

الوليد بن المغيرة، وقيلَ : كلدة بن أسيد، فعلى هذا نزلت في منكري البعث ، وقيل : المراد بالإنسان آدم وذريته ، ﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ وهو اعتداله واستواء شبابه ؛ كذا قال عامة المفسرين ، وهو أحسن ما يكون؛ لأنه خلق كل شيء منكبًا عل وجهه، وخلقه هو مستويًا، وله لسان ذلق، ويد وأصابع يقبض بها، وقال أبو بكر بن طاهر: مُزيناً بالعقل، مُؤدياً للأمر، مَهدياً بالتمييز، مديد القامة؛ يتناول مأكوله بيده، ابن العربي (١): ليس لله تعالى خلق أحسن من الإنسان، فإن اللّه خلقه حيًا عالمًا، قادرًا مريدًا متكلما، سميعًا بصيرًا، مدبرًا حكيمًا، وهذه صفات الرب سبحانه، وعنها عبر بعض العلماء، ووقع البيان بقوله: «إن اللّه خلق آدم على صورته» (٢) يعني على صفاته التي قدمنا ذكرها، وفي رواية «على صورة الرحمن» ومن أين تكون للرحمن صورة متشخصة، فلم يبق إلا أن تكون معاني، وقد أخبرنا المبارك بن عبدالجبار الأزدي قال: أخبرنا القاضي أبو القاسم علي بن أبي علي القاضي المحسن عن أبيه قال: كان عيسى بن موسى الهاشمي يحب زوجته حبا شديدا فقال لها يوما: أنت طالق ثلاثا إن لم تكوني أحسن من القمر؛ فنهضت واحتجبت عنه، وقالت: طلقتني، وبات بليلة عظيمة، فلما أصبح غدا إلى دار المنصور، فأخبره الخبر، وأظهر للمنصور جزعًا عظيمًا؛ فاستحضر الفقهاء واستفتاهم، فقال جميع من حضر: قد طلقت؛ إلا رجلا واحدا من أصحاب أبي حنيفة، فإنه كان ساكتا، فقال له المنصور: ما لك لا تتكلم؟ فقال له الرجل: بسم اللّه الرحمن الرحيم﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ وَطُورِ سِينِينَ وَهَذَا الْبَلَدِ الأمِينِ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾، يا أمير المؤمنين، فالإنسان أحسن الأشياء، ولا شيء أحسن منه، فقال المنصور لعيسى بن موسى: الأمر كما قال الرجل، فأقبل على زوجتك، وأرسل أبو جعفر المنصور إلى زوجته: أن أطيعي زوجك ولا تعصيه، فما طلقك.

فهذا يدلك على أن الإنسان أحسن خلق اللّه باطنا وظاهرا، جمال هيئة، وبديع تركيب الرأس بما فيه، والصدر بما جمعه، والبطن بما حواه، والفرج وما طواه، واليدان وما بطشتاه، والرجلان وما احتملتاه، ولذلك قالت الفلاسفة: إنه العالم الأصغر؛ إذ كل ما في المخلوقات جمع فيه.

الثانية : قوله تعالى﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ أي: إلى أرذل العمر، وهو الهرم بعد الشباب، والضعف بعد القوة، حتى يصير كالصبي في الحال الأول؛ قاله الضحاك والكلبي وغيرهما، وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ إلى النار، يعني الكافر (٣)، وقاله أبو العالية، وقيل: لما وصفه اللّه بتلك الصفات الجليلة التي ركب الإنسان عليها، طغى وعلا (٤)، حتى قال﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤] وحين علم اللّه هذا من عبده، وقضاؤه صادر من عنده، رده أسفل سافلين؛ بأن جعله مملوءا قذرا، مشحونا نجاسة، وأخرجها على ظاهره إخراجا منكرا، على وجه الاختيار تارة، وعلى وجه الغلبة أخرى حتى إذا شاهد ذلك من أمره، رجع إلى قدره، وقرأ عبدالله:

---

(١) أحكام القرآن (٤/ ١٩٥٢) للقاضي ابن العربي المالكي .

(٢) متفق عليه : وقد سبق .

(٣) صحيح إليه : الطبري (٣٠/ ٢٦٧) في تفسيره.

(٤) تفسير البغوي (٨/ ٤٧٢) .

«أسفل سافلين»، وقال؛ ﴿أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ على الجمع؛ لأن الإنسان في معنى جمع، ولو قال: أسفل سافل جاز؛ لأن لفظ الإنسان واحد، وتقول: هذا أفضل قائم، ولا تقول أفضل قائمين؛ لأنك تضمر لواحد، فإن كان الواحد غير مضمر له، رجع اسمه بالتوحيد والجمع؛ كقوله تعالى﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٣٣]، وقوله تعالى﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ [الشورى: ٤٨] وقد قيل: إن معنى ﴿رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ أي: رددناه إلى الضلال؛ كما قال تعالى ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [العصر] أي: إلا هؤلاء، فلا يردون إلى الهرم، والاستثناء على قول من قال ﴿أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ النار، متصل، ومن قال: إنه الهرم فهو منقطع.

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝ ﴾

قوله تعالى﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فإنه تكتب لهم حسناتهم، وتمحى عنهم سيئاتهم؛ قاله ابن عباس (١)، قال: وهم الذين أدركهم الكبر، لا يؤاخذون بما عملوه في كبرهم (٢)، وروى الضحاك عنه قال: إذا كان العبد في شبابه كثير الصلاة كثير الصيام والصدقة، ثم ضعف عما كان يعمل في شبابه؛ أجرى الله عز وجل له ما كان يعمل في شبابه (٣)، وفي حديث قال النبي ﷺ: «إذا سافر العبد أو مرض كتب الله له مثل ما كان يعمل مقيما صحيحا» (٤)، وقيل﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فإنه لا يخرف ولا يهرم، ولا يذهب عقل من كان عالما عاملا به، وعن عاصم الأحول عن عكرمة قال: من قرأ القرآن لم يرد إلى أرذل العمر، وروي عن ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال « طوبى لمن طال عمره وحسن عمله» (٥)، وروي: إن العبد المؤمن إذا مات أمر الله ملكيه أن يتعبدا على قبره إلى يوم القيامة، ويكتب له ذلك، ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ قال الضحاك: أجر بغير عمل، وقيل: غير مقطوع.

﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ۝ ﴾

قيل: الخطاب للكافر؛ توبيخا وإلزاما للحجة، أي: إذا عرفت أيها الإنسان أن الله خلقك في أحسن تقويم، وأنه يردك إلى أرذل العمر، وينقلك من حال إلى حال؛ فما يحملك على أن تكذب بالبعث والجزاء، وقد أخبرك محمد ﷺ به؟ وقيل: الخطاب للنبي ﷺ؛ أي: استيقن مع ما جاءك من الله عز وجل، أنه أحكم الحاكمين، روي معناه عن قتادة، وقال قتادة أيضا والفراء: المعنى فمن يكذبك أيها الرسول بعد هذا البيان بالدين، واختاره الطبري، كأنه قال: فمن يقدر على ذلك؛ أي: على تكذيبك بالثواب والعقاب، بعد ما ظهر من قدرتنا على خلق الإنسان والدين والجزاء، قال

(١) صحيح: كذا في تفسير الطبري (٣٠/ ٢٦٩)، عن عكرمة.
(٢) ضعيف: تفسير الطبري (٣٠/ ٢٦٩) من طريق العَوْفيين.
(٣) منقطع: بين الضحاك وابن عباس ـ رضي الله عنهما، وانظر السابق.
(٤) صحيح: البخاري (٢٩٩٦) في الجهاد، عن أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه.
(٥) صحيح: الترمذي (٢٣٢٩) في الزهد، عن عبد الله بن بسر، وكذا أحمد (٤/ ٨٨)، وقال الترمذي: «وفي الباب عن أبي هريرة، وعن جابر»، ورواه الترمذي (٢٣٣٠) في الزهد، عن أبي بكرة ـ رضي الله عنه.

الشاعر:

دنا تميما كما كانت أوائلُنَا دَانت أوائلُهُم في سَالفِ الزَّمَنِ

﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَـٰكِمِينَ ۝٨ ﴾

أي: أتقن الحاكمين صنعا في كل ما خلق، وقيل: ﴿بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ قضاء بالحق، وعدلاً بين الخلق، وفيه تقرير لمن اعترف من الكفار بصانع قديم، وألف الاستفهام إذا دخلت على النفي وفي الكلام معنى التوقيف صار إيجابا، كما قال:

ألستم خَيْرَ مَنْ رَكِبَ المطايا

وقيل: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ . أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾: منسوخة بآية السيف، وقيل: هي ثابتة؛ لأنه لا تنافي بينهما، وكان ابن عباس وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما إذا قرآ ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ قالا: بلى، وأنا على ذلك من الشاهدين؛ فيختار ذلك، والله أعلم، ورواه الترمذي عن أبي هريرة قال: من قرأ سورة ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾ فقرأ ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ فليقل: بلى، وأنا على ذلك من الشاهدين [1]، والله أعلم.

(١) ضعيف: أبو داود (٨٨٧) في الصلاة، والترمذي (٣٣٤٧) في التفسير، وضعفه الألباني، وانظر ضعيف الجامع (٥٧٨٤).

openkandl.com